الهارب

الهارب

رواية

سهر أحمد

الطبعة الأولي .. يناير ٢٠١٤

الغلاف : إيمان صلاح

اخراج داخلي : الحلم للدعاية والاعلان

رقم الإيداع : ٢٠٣١٢/٢٠١٣

الترقيم الدولي : 978-977-6412-41-5

إن دار الحلم للنشر والتوزيع، غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبر بالضرورة عن آراء الدار .

الحلم للنشر والتوزيع

٤ شارع الأشراف من شارع مؤسسة الزكاة - المرج

محمول : 01141824562

dar_el7elm@hotmail.com

الهارب

رواية

سهر أحمد

الهروب

وسط الظلام الحالك والبرد الشديد وخطواته تتسارع وتسابق الزمن، لم يعد «يوسف» يسمع سوى صوت أنفاسه تلهث، النفس يصارع الآخر، فكر في أن يبطئ قليلا من خطواته، لكن صوت صافرات الإنذار كان لا يزال مسموعا بوضوح في أذنيه كما أنه لم يبعد عن السجن إلا قليلا.

شعور كبير بالقلق والخوف، هذا هو ما يحس به الآن؛ فقد قضى أياما طويلة يخطط للهروب، لكنه لم يكن متأكدا من أن خطته ستنجح، إنه الآن قد هرب بالفعل، أصبح خارج هذا المكان الموحش الذي أضاف إلى حياته ما لم يكن ينقصها من عذاب وألم.

وسط هذا التفكير العميق سمع صوت سيارة الشرطة تقترب.. تعثرت خطواته وسقط على الأرض، ثم رفع رأسه ليجد سيارة نقل تقف على جانب الطريق، كانت بعض أعمدة الإنارة تغطي الشارع بإضاءة ضعيفة كحالة معظم الطرق السريعة والمناطق المتطرفة في الصحراء، تسارعت خطواته نحو السيارة، وبالفعل صعد إلى خلفيتها دون أن يراه السائق الذي كان مشغولاً بفحص الموتور ولم تفُت بعد ذلك لحظات إلا وكانت السيارة تشق طريقها إلى وجهة لا يعرفها إلا الله.

* * *

الفصل الأول

زفاف غير عادي

- «نور».. اصحي بقى يا حبيبتي، «حازم» عمال يرنلك على الموبايل بقاله ساعة.

كانت هذه أولى الكلمات التي وصلت إلى أذني «نور».. إنه صوت والدتها المعتاد بنفس نبرة اللوم والقلق الموجودة فيه، لكن القلق زائد هذا الصباح؛ وذلك بالطبع نظرا لأهمية اليوم.

فتحت «نور» عينيها ونظرت لأمها قائلة: حاضر يا ماما، أنا صحيت خلاص، بدأت «نور» بعد ذلك تمارس روتين يومها العادي: غسلت وجهها، ارتدت ملابسها واستعدت لتناول الإفطار.

كانت الفيلا كلها في حالة ارتباك، الخدم يتحركون في كل مكان، وأمها تتحدث في التليفون بشكل متواصل تتأكد من موعد وصول كعكة الزفاف وهدايا المدعوين وتوصي الخدم بارتداء «اليوني فورم» الذي اختارته لهم.. أثناء ذلك قاطعتها «نور» قائلة: ماما، هو فين الفطار؟

- فطار؟ إيه الروقان اللي انتي فيه ده؟ يا بنتي هو النهارده فرحي ولا فرحك؟ يلا روحي اجهزي، كلها عشر دقايق وطقم كامل من البيوتي سنتر هيبقى موجود.

- يا ماما بس..

- روحي يا «نور»، مفيش وقت للمناقشة وخناقات كل يوم.

همَّت «نور» بالصعود وبدا على وجهها الضيق.. في حين انشغلت أمها بالرد على تليفون آخر، لكنها قطعته قائلة: «نور»، ما تنسيش تكلمي «حازم» علشان كان عايزك.

أومأت «نور» برأسها ثم صعدت.

***

وصلت «نور» إلى غرفتها لتجد تليفونها يرن..
إنه «حازم»، يكلمها ربما للمرة العاشرة هذا الصباح، ردت: ألو، أيوه يا «حازم».

- أيوه يا حبيبتي.. صباح الخير.

-صباح النور يا حبيبي.. انت فين دلوقتي؟

- أنا في العربية رايح عند «خالد» صاحبي.. زي ما اتفقنا هظبط نفسي هناك واجيلك على الساعة ٧.. يعني فاضل ٦ ساعات ودقيقتين و١٤ ثانية وتبقي مراتي يا قمر.

-يا سلام، ده انت حاسبهم بقى (كانت «نور» تتحدث وهي تبتسم وتنظر إلى المرآة متلمسة شعرها)، لكن قطع حديثها صوت طرق على باب الغرفة.

-معلش يا «حازم» أنا هقفل دلوقتي، شكل الكوافير والناس اللي ماما جايباهم دول جُم.

- ماشي يا حبيبتي.. باي باي مؤقتا.

-باي..

***

كانت الساعة تقترب من السادسة والنصف حين انتهى الكوافير من عمله، نظرت «نور» إلى المرآة لتجد نفسها عروسا، عروسا حقيقية، شكلها يوحي بذلك، لكن ما يثير مخاوفها أنها لا تشعر بالفرحة من داخلها، لا تشعر بالسعادة التي تشعر بها أي فتاة يوم زفافها.

كانت لا تعرف سبب هذا الشعور؛ فهي لم تجبَر على الزواج من «حازم».. كما أن «حازم» شخص تتمناه كل الفتيات، وكثيرا ما حسدتها صديقاتها على اختياره لها، وليس هذا فحسب؛ فهن يحسدنها على حياتها بوجه عام؛ فحياتها أقرب للمثالية من وجهة نظرهن، لا ينقصها شيء، فهي تتمتع بجمال شديد: شعر أسود طويل وعينان عسليتان تأسران أي شخص ينظر إليهما، قوامها ممشوق ولونها الخمري يزيدها جمالا وسحرا، وليس الجمال فقط؛ فقد أنعم الله عليها بالمال والعلم والحب، فما الشيء الذي ينقصها إذًا؟ إن حياتها حلم تحلم أي فتاة أن تعيشه، إلا أن هذا الحلم بدا كالكابوس بالنسبة لها؛ فهي تشعر دائما باحتياجها للكثير، ليس لقلة ما لديها، لكن لأنها أشياء لم تكن تتمناها.. فهي تتمنى...

فكرت طويلا أنها أصبحت تجد صعوبة في معرفة أمانيها؟ فماذا عن الوصول إليها؟ في الماضي كانت تحب كتابة القصص، أما الآن فهي تشعر أنها لا تستطيع حتى أن تكتب سطرا واحدا، حتى القصص القصيرة التي كانت تكتبها لإحدى المجلات توقفت عن كتابتها فجأة دون أن تسأل نفسها عن السبب..

انتبهت «نور» بعد ذلك على صوت الكوافير: انتي كده جاهزة، أنا ظبطلك الطرحة وكله تمام.

- شكرا.

في هذه اللحظة فتحت والدتها الباب ودخلت وهي تقول: «نور».. إيه؟ جهزتي يا حبيبتي.

-أيوه يا ماما.
اقتربت منها والدتها ونظرت إليها قائلة: ما لك يا حبيبتي قلقانة من إيه؟ ده انتي شكلك زي القمر.
ردت «نور» وعلى وجهها ابتسامة متكلفة: مفيش حاجة يا ماما، أنا كويسة.
- طب يلا يا حبيبتي أحسن «حازم» مستني تحت على نار.
أومأت «نور» برأسها ثم قالت: حاضر، أنا خلاص نازلة حالا.

***

أمام الفيلا جلس «يوسف» في سيارة بيضاء صغيرة وبجانبه «فرج»، شخص في حوالي الثلاثينات من العمر، يبدو على ملامحه الإجرام، ظل «يوسف» يراقب الوضع في الفيلا بدقة وتركيز شديدين، في حين بدا على صديقه الانشغال بتنسيق ملابسه، كانت ملابسه تشبه ملابس منسقي حفل زفاف «نور».
- عرفت هتعمل إيه؟
- آه، بس زي ما اتفقنا هو ده كل دوري في الموضوع، أنا مليش دعوة بأي حاجة تانية.
- ما تقلقش.
- والعربية، اوعى المعلم يعرف إني أنا اللي اديتهالك؟
- ما تخافش يا «فرج».. اعمل انت بس المطلوب منك واعتبر نفسك ما دخلتش في الموضوع ده من الأساس.
(مد «فرج» يده إلى الكرسي الخلفي من السيارة وحمل في يده علبة حلوى مكتوبا عليها فندق شيراتون، ونزل من السيارة).
اقترب «فرج» بعد ذلك من باب الفيلا ودار بينه وبين البواب حديث

قصير زاد من قلق «يوسف» واضطرابه، لكنه عاد لهدوئه عندما رآه من بعيد والبواب قد سمح له بالدخول، حينها بدأ «يوسف» يقود سيارته ببطء.

***

داخل الفيلا كان الجو يوحي بالهدوء والفرحة، فقد أخذ المدعوون يتوافدون على المكان والفرقة الموسيقية الكلاسيكية التي اختارتها «نور» لتعزف طوال الزفاف - على الرغم من رفض والدتها - تعزف أجمل الألحان.

وقفت «نور» وسط صديقاتها يتضاحكن ويتحدثن حين اقترب «حازم» من ظهرها واحتضنها قائلا: إيه هو العريس مش من حقه يقف مع عروسته شويَّه ولا إيه؟

ضحكت الفتيات وقالت إحداهن: طب يا «نور» هنسيبك إحنا بقى.

استدارت «نور» لـ«حازم» وابتسمت قائلة: معلش يا «حازم» أنا حاسة إني مش هشوف أصحابي تاني علشان كده سايباك وواقفة معاهم.

- كل ده علشان سنتين في لندن؟ ما انتي طول عمرك بتسافري.

بدا على وجه «نور» المفاجأة وابتعدت عن «حازم» ثم قالت: سنتين؟ انت ما قولتليش كده، انت قولت إنه شهر عسل في لندن.

- لا، أنا قولتلك إن شغلي كله ممكن يبقى هناك الفترة الجاية.

-أيوه بس ما قولتليش إننا هنقعد هناك سنتين.

- خلاص يا «نور» أديكي عرفتي..

-عرفت؟ عرفت إمتى؟ في الفرح والناس موجودين وفاضل ربع ساعة والمأذون ييجي.

- «نور» إحنا هنتخانق يوم فرحنا؟ ده بدل ما نرقص ونبقى مبسوطين.

-نرقص؟ انت مش حاسس باللي انت عملته؟ وبعدين؟
توقفت «نور» عن الحديث حين استمعت إلى صوت الخادم - «فرج» - ينادي عليها.
- «نور هانم».. بعد إذن حضرتك.. لحظة واحدة.
-أي حاجة بخصوص الفرح بلغ ماما علشان أنا مشغولة دلوقتي.
الخادم: لأ يا أفندم.. ده موضوع خاص بحضرتك.
-طب أنا جاية حالا.. «حازم» أنا ما خلصتش كلام في الموضوع ده ولما أرجع لازم نتناقش.
همهم «حازم» بصوت منخفض: نتناقش، هو إحنا هنقضي النهارده مناقشة؟
ابتعدت «نور» قليلا عن «حازم» وبدأ الخادم في الحديث إليها بصوت منخفض: معلش يا هانم أنا آسف إني قاطعت حضرتك بس الموضوع مهم.
-خير؟ فيه إيه؟
- فيه واحد واقف عند الباب اللي ورا وباعت لحضرتك الورقة دي؟
-إيه دي؟
- أنا ما فتحتهاش، هو قالي أديهالك، أنا في الأول رفضت بس بعد كده علّى صوته وقال إنه واحد يعرفك وبيحبك وإنه هيعمل فضيحة لو ما وصلتلكيش الورقة وروحتي قابلتيه دلوقتي حالا.. بيقول إنه اسمه «شريف» لو حضرتك تعرفيه.
-أنا ما اعرفش حد بالاسم ده.
- خلاص لو حضرتك تحبي أروح أقوله كده.
-لأ.. روح انت بلغ ماما باللي حصل وخليها تحصلني على الباب اللي ورا وأنا رايحة أشوف إيه الحكاية.

- حاضر يا أفندم.

سارت «نور» نحو الباب الخلفي، كان هذا المكان مظلما عن باقي أجزاء الفيلا التي تغطيها أضواء الفرح، اقتربت من الباب ونظرت حوله فلم تجد أحدا، نظرت إلى الشارع فلم تجد سوى سيارة بيضاء خالية، في هذه الأثناء شعرت بخطوات خلفها ظنت أنه الخادم فاستدارت وهي تقول: هو فين؟ فجأة امتدت يد شخص لتطوق رقبتها وتكتم أنفاسها، كانت على وشك أن تصرخ، لكنها وفي لحظات شعرت بدوران شديد ولم تعد ترى أو تشعر بأي شيء.

***

الفصل الثاني

الخاطف المجهول

بعد مرور عدة ساعات، ومع اقتراب الوقت من منتصف الليل، كانت الأوضاع في الفيلا قد تبدلت من الفرح إلى الحزن، بل كادت تصل إلى الانهيار، فـ«نور» منذ أن تركت «حازم» لم تعُد، ولم يستطع أحد حتى الآن أن يعرف شيئا عن مكانها، فقد بحث عنها والدها و«حازم» وجميع العاملين في الفيلا في كل مكان تقريبا دون أن يجدوا لها أي أثر.

صارح «حازم» والدة «نور» بالحديث الذي دار بينهما قبل أن تتركه وغضبها من فكرة السفر، لكنه استبعد أن تكون قد قررت الهروب.. كيف وقد كانت تنوي النقاش في الموضوع عند عودتها؟! وحتى الخادم الذي تحدث معها.. لقد اختفى هو الآخر ولا يعرف أحد من هو.. يبدو أنه دخل إلى الفيلا دون أن يفتعل المشاكل حتى لا يلتفت إليه أحد.. لكن لماذا؟ ولصالح من؟

كل هذه التساؤلات كانت تدور في أذهان الجميع، فلم يكن أحد يستبعد شيئا، ربما يريد شخص ما ابتزاز والدها أو خطيبها؟ ظل النقاش حول هذه الأمور ساعات طوالا حتى ضاق الجميع ذرعا بما يحدث، في هذه الأثناء دخل ضابط الشرطة إلى حجرة المكتب وبدا على ملامحه اليأس.. قال: للأسف يا جماعة إحنا مفيش قدامنا دلوقتي غير إننا نكمل المحضر ونثبت تاريخ اختفائها.

- ردت والدة «نور» بانفعال وصياح: يعني إيه اللي انت بتقوله ده؟ يعني أنا بنتي اتخطفت وما حدش هيقدر يرجعها؟

- يا «رجاء هانم» إحنا عملنا اللي علينا وهنحاول..

قاطعته الأم بصوت مرتفع وقد وصلت إلى مرحلة الانهيار التام وبدأت في البكاء بشكل هستيري: لأ.. أنا مش هسكت.. أنا هخرج أدور عليها بنفسي.. أكيد هي لسه قريبة.. أكيد اللي خطفها ما لحقش يبعد.. يا حبيبتي يا بنتي.. يا عالِم جرالك إيه؟

- اهدي يا ماما تعالي أطلعك ترتاحي في أوضتك وأنا هروح أدور عليها بنفسي.
- لازم يا «حازم».. لازم تدور عليها.. رجعلي بنتي أنا مليش غيرها.
استمر «حازم» في تهدئتها وأمسك بيدها واصطحبها إلى الأعلى قائلا: حاضر يا ماما، بس تعالي أطلعك أوضتك، انتي لازم ترتاحي شويّه.
بمجرد أن خرج «حازم» ووالدة «نور» استأنف الضابط حديثه متوجها إلى والد «نور»: «عصام بيه» حضرتك ليك أعداء؟ يعني شاكك في شخص معين يكون هو اللي عمل كده؟
- ما اقدرش أتهم حد معين، أنا رجل أعمال، يعني فيه منافسة دايما بيني وبين ناس كتير ممكن يكون أي حد منهم ورا الموضوع ده؟
- على العموم يا ريت حضرتك تيجي معانا نكمل المحضر وهنبدأ التحقيق فورا في الموضوع.
همَّ الاثنان بالخروج واستكمل الضابط حديثه: يا ريت حضرتك تجيب صورة للآنسة «نور» معاك علشان ننشرها في الجرايد، جايز حد يشوفها ويبلغ عن مكانها.

***

فتحت «نور» عينيها لتجد نفسها نائمة على سرير متهالك في غرفة يكاد الظلام يكسوها بالكامل إلا من خيط رفيع من الضوء يتسلل من بين فتحات شباك صغير، كانت الغرفة صغيرة المساحة نسبيا، ليس بها سوى هذا السرير وبطانية وسجادة رخيصة مفروشة على الأرض، شعرت «نور» بدوار شديد وصداع يكاد يشق رأسها، استندت على طرف السرير لتقف واستغربت لأنها وجدت نفسها غير مقيَّدة إطلاقا، تلمست خطاها حتى وصلت إلى الشباك المغطى بالحديد وحاولت النظر من خلاله، لكنها لم ترَ شيئا، أخذت تبحث عن طريقة للخروج، ركلت الباب وطرقت على الحديد، لكن من دون أي فائدة، في هذه الأثناء سمعت «نور» صوت أقدام تقترب من باب الغرفة، أخذت تبحث حولها عن شيء تحتمي به وربما قد يساعدها على الهرب، نظرت تحت السرير لتجد عصا مقشة قديمة، أخذتها ووقفت وراء الباب، كان قلبها يدق بشدة لدرجة أنها تكاد تسمع صوت دقاته وكانت ترتجف من الخوف، لحظات وانفتح الباب ونظر «يوسف» نحو السرير فلم يجدها استدار ليجد عصا المقشة تنزل نحوه، تحرك بسرعة فصدمت العصا الأرض، حاول السيطرة على «نور» فقد كانت تضرب وتصرخ في الوقت نفسه، أطلقت عدة صرخات استنجاد وظلت تضرب بالعصا و«يوسف» يتفادى الضربات بأعجوبة إلى أن سقطت العصا من يدها، جرت نحو الباب، إلا أن «يوسف» كان قد أغلقه، أمسكها من خصرها وأخذ يخاطبها: اهدي، اهدي وبطلي صويت. وضعها على السرير وسط مقاومة وصراخ منها، رفع ذراعيها إلى الأمام وربطهما في السرير، ظلت تقاوم وتركله بيدها وبقدمها وتزيحه من على السرير.

مد «يوسف» يده إلى وجهها وأبعد شعرها عن عينيها ونظر إليها ثم قال بانفعال: اهدي.

كان الطعام الذى ذهب لاحضاره قبل ان تستفيق قد تبعثر على الارض فأخذ ينظف مكانه ثم تأكد من اغلاق الباب جيدا ، و بدأ فى فرش ملاءة على الارض و نام على ظهره ، فى اثناء ذلك اخذت تسأله : انت مين اللى دفعلك علشان تعمل كده ، اكيد واحد من اللى بيكرهوا بابا ، او حازم ، ما ترد ؟

كادت ان تستشيط غضبا من تجاهله لها : انت يا بنى آدم ؟

نظر اليها يوسف بعد ان نام على الارض وتحدث بهدوء : نامى وبكرة الصبح هتعرفى كل حاجة .

- انام ؟ انت مجنون ولا ايه ؟ رد بدل ما اصوت و الم عليك الناس .

استدار يوسف متجاهلا اياها ثم قال : تصبحى على خير .

نام يوسف اما نور فلم تذق عيناها النوم طوال الليل كانت تفكر فى مصيرها و ما يمكن ان يفعله بها هذا المجرم ، مرت ساعات الليل طوال لا يمكن احتمالها و بمجرد شروق الشمس خرج يوسف مرة اخرى ، غاب قليلا ثم عاد و معه بعض الطعام ، كانت تتابع كل تصرفاته و تمتنع عن التعليق فهو لم يحاول ان يؤذيها او يسئ اليها حتى الآن .

***

بدأ يوسف فى اعداد بعض السندوتشات ووضعها فى طبق و جلس على طرف السرير ثم قال : اتفضلى افطرى .

نظرت له نور باستغراب شديد و ادارت وجهها فاستأنف يوسف حديثه : انت مكلتيش من امبارح .

- و انت خطفتنى و جبتنى هنا علشان نفطر مع بعض .

نظر اليها يوسف ثم ابعد الطبق من امامها و وضعه على طاولة صغيره و عاد الى جانبها مرة اخرى و لكن هذه المرة ممسكا برزمة من الورق و قلم و وضعها امامها ثم قال : اتفضلى .

- ايه ده ؟

- ده اللى انا جبتك علشانه ؟ علشان تكتبى جواب انا هملهولك ؟

- نعم ؟ انت بتهزر ؟ انت مجنون ؟

- ليه ؟ انت مش بتعرفى تقرى و تكتبى ؟

- انا مش فاهمة ... يعنى انت خاطفنى وعامل فيه كل ده علشان اكتبلك جواب ؟ واشمعنى انا ؟ مفيش فى مصر حد غيرى بيعرف يقرأ ويكتب ؟ و بعدين ما تكتبه انت ؟

اقترب يوسف منها و تحدث بضيق: بصى طول ما انت قاعدة هنا كل المطلوب منك تنفذى اللى اقولك عليه و بس من غير اسئله

(تحرك من جانبها واشعل سيجارة و جلس بعيدا فى مقابلتها وسادت لحظة صمت قطعتها نور قائلة :

طب وبعدين ايه اللى يضمنلى انى بعد ما اكتب اللى انت عايزة مش هتموتنى ؟

- مفيش حاجة تضمن بس ما تخافيش انا مش ناوى اقتلك .

ردت نور باستهزاء : كتر خيرك ، طب انا هكتب و انا اديا متكتفين كدا ؟

تحرك يوسف من مكانه و اقترب منها و فك يديها ، فاعتدلت نور فى

جلستها و اخذت تتحسس يديها اللاتى كانتا تؤلمانها بشده و سادت لحظات صمت اخرى حتى استأنفت نور حديثها قائلة : يعنى انت مش هتتصل بأهلى و لا هتطلب فدية ولا اى حاجة من دى ؟

- لا

- و انا مجرد ما اكتب الجواب ده همشى .

- المفروض ، بس ياريت تكتفى بانك تكتبى الجواب و بس و بطلى تستجوبينى.

حضرت نور الورق و القلم و استعدت للكتابة ثم قالت : طب اتفضل ملينى خلينا نخلص .

- انا عايزك تكتبى اللى هقوله بالظبط متغيريش اى كلمة .

اومأت نور برأسها بضيق .

نظر لها «يوسف» ثم أدار وجهه نحو الشباك وأخذ نفسا عميقا ثم بدأ يملي عليها ما يريد:

«إلى أخويا العزيز ياسين.. أنا مش عارف أبدأ كلامي ازاي، ومش عارف انت عايز تسمع حاجة عني ولا لأ بعد كل اللي حصل.. يمكن تكون نسيتني.. يمكن أكون بقيت مجرد ماضي بالنسبة لك، ويمكن تكون قاصد ما تفكرش نفسك بيَّ، كل دي حاجات أنا ممكن أستحملها زي ما استحملت حاجات كتير أوي قبل كده، بس الظروف اللي بمر بيها دلوقتي خليتني أفكر كتير، فكرت فيك.. فينا.. في أيامنا اللي فاتت، في صورتي اللي كنت راسمها في خيالك، علشان كده قررت أكتبلك الجواب ده».

«أنا يوسف صالح الصاوي، اللي مهما مرت عليه الأيام وغيرت فيه لسه بعشق صوت البحر، لسه فاكر أول خط رسمته في لوحة بابا وإحنا على الشط، ولسه بضحك لما بفتكر شكلك وانت متغاظ إنه خلاني أرسم في

لوحته، ساعتها انت استغربت وانا كمان، بابا عمره ما كان بيخلي حد يلمس أدوات الرسم بتاعته».

كان «يوسف» يتحدث وعلى شفتيه ابتسامة قد فارقته طويلا.

من ذكريات «يوسف»

كان «يوسف» يجلس مع والده على الشاطئ وأمامهما لوحة الرسم والألوان كما هو حالهما دائما؛ فهما لا ينتقلان إلى أي مكان من دون هذه الأدوات، كان في حوالي السابعة من العمر وأخوه يصغره بعامين تقريبا.
أمسك «يوسف» بالقلم وبدأ يرسم، كان ينظر إلى أخيه بشكل متقطع نظرة المنتصر الذي فاز بشيء ثمين، أمسك أبوه بيده وساعده على الرسم وهو يقول: لما تيجي ترسم ما تفكرش في أي حاجة تانية.
أومأ «يوسف» برأسه ثم تحدث إلى أبيه قائلا:
- أنا زهقت من كتر ما رسمنا البحر.
رد والده مبتسما: أحلى حاجة في الدنيا البحر، مهما رسمته دايما هتلاقي فيه حاجة جديدة ظهرت، بس المهم انت تكتشفها.
كان يصغي إلى كلام والده دون أن يفهمه؛ فوالده اعتاد أن يحدثه كصديق في مثل سنه وينتظر منه أن يفهم كلامه، ولم يكن «يوسف» يريد لهذه المعاملة أن تتغير، خاصة أنه ليس له صديق آخر؛ فوالده يحاول إبعادهما عن الجميع؛ فقد كان يريد أن يجعلهما مختلفين بطريقة ما وأن يواجها الحياة ويتعاملا معها مثلما يواجهها هو.
مع الغروب بدأ الأب في جمع أدوات الرسم والألوان وهموا جميعا بالعودة إلى المنزل، لكن في منتصف الطريق توقف «يوسف» فجأة وكأنه تذكر شيئا ما.
- بابا، إحنا ما اصطدناش سمك علشان الغدا زي ما ماما طلبت.

- آه صحيح.

- أنا خايف من ماما، أحسن تتخانق زي كل يوم.. تيجي نشتري من السوق؟

والده: ماشي.. بس اوعى تقولها.

- ماشي.. بس.. نظر بقلق نحو أخيه «ياسين» فبادله أبوه النظرات ثم أومأ له برأسه ليذهب.

ذهب «يوسف» لشراء السمك من السوق وانتظره أبوه على جانب الطريق حاملا أخاه وأخذ يلقنه: «ياسين»، عرفت هتقول إيه لو ماما سألتك؟

أومأ «ياسين» برأسه ثم قال: آه.

هقولها بابا قعد يصطاد طول النهار وما قعدش يرسم خالص.

والده: اوعى تنسى يا «ياسين».

هز «ياسين» رأسه نافيا، في هذه اللحظات عاد «يوسف» ومعه السمك فامسك أبوه بيده وانطلقوا جميعا عائدين إلى المنزل.

الفصل الثالث

في منزل «يوسف»

مرت دقائق قليلة وعاد الجميع إلى المنزل، كان منزلا صغيرا، أثاثه متواضع يوحي بأن وضع الأسرة ليس على ما يرام، فمرتب الأب كغيره من المدرسين ضئيل للغاية، بل كانت حالته أسوأ؛ فهو لا يعطي دروسا خصوصية، فمن الذي سيأخذ دروسا في الرسم إذا كانت الحصص الأساسية له في المدرسة لا يحضرها الطلاب.

استقبلتهم الأم بنظرة عتاب قائلة: هو ده اللي طلبته منكم؟ أنا مش قولتلكوا الساعة ٣ تكونوا هنا علشان نلحق نحضر الغدا؟ (كانت تتحدث وهي تمسك بكيس السمك وتدخل به إلى المطبخ كأنها لا تريد أن تضيع أي لحظة أثناء حديثها).

جرى «ياسين» نحو المطبخ قائلا: أصل إحنا قعدنا نر... وضع أبوه يده على فمه وحمله إلى داخل الغرفة دون أن تلاحظ الأم.

استكمل والده الحديث: قعدنا نصطاد، قولنا بقى نصطاد سمك كتير علشان يكفى النهارده وبكرة.

نظر «يوسف» إلى أبيه وضحك بصوت منخفض ثم استكمل حديث أبيه قائلا: ده إحنا خلصنا على السمك اللي في البحر كله.

- والله؟ انت بالذات أنا قولتلك ما تتأخرش عشان لازم بابا يذاكر لك، يلا اتفضل اغسل إيدك وروح خلي بابا يذاكر لك على ما أخلص الغدا.

- ما أنا مش لازم أذاكر النهارده بقى، وبعدين أنا لسه ما دخلتش أولى ابتدائي أصلا.

- كلها شهرين والدراسة هتبدأ، مش كفاية اتأخرت سنة على المدرسة كمان الدراسة هتبدأ من غير ما تتعلم «ألف به»؟ يلا اتفضل اعمل اللي بقول عليه.. يلا.

مضى «يوسف» لينفذ أوامر والدته على مضض فجلس مع أبيه يذاكران حتى دعتهما والدته لتناول الغداء، كان الوقت متأخرا يقترب من السابعة

مساءً، بعد الغداء جلس الجميع كالعادة يشاهدون التليفزيون وجلس «يوسف» في حضن أبيه كالمعتاد، كانوا جميعا سعداء يضحكون إلا الأم فقد كانت صامتة واجمة كأن هناك ما يحزنها ويقلقها.

بعد لحظات طلبت الأم من الأب أن يوافيها إلى الغرفة لأنها تريد التحدث معه في موضوع مهم، وأغلقت التليفزيون وطلبت منهما الذهاب إلى غرفتهما للنوم، نفذ الجميع الكلام دون نقاش فلم يكن أحد يريد أن يعارضها في هذه اللحظة، فقد كان يبدو على ملامحها الضيق الشديد.

دخل «يوسف» وأخوه إلى غرفتهما ولم تفُت لحظات حتى سمعا صوت والديهما يتشاجران، كان النقاش يدور حول مصاريف المنزل كالعادة؛ فالأم تلومه على أنه لم يحاول أن يجد عملا إضافيا ليساعدهم على المعيشة، وأبوه يؤكد كالعادة أنه قد بحث ولم يجد، كان صوتهما يعلو بشدة ولاحظ «يوسف» على أخيه الخوف وعدم القدرة على النوم فحاول أن يشغله قليلا عمَّا يحدث في الخارج فمد يده إلى الدرج بجانبه وأخرج ١٠ قروش وقال له: انت جايلك نوم؟

- لا.
- طب تيجي نلعب ملك وكتابة؟
- ماشي، ولو كسبت تديني مصروفك بتاع بكرة؟
- ماشي.. بس ده لو كسبت.
- هكسب وهتشوف.

جلس الاثنان بعد ذلك يشغلان وقتهما بالضحك واللعب ويحاولان تجاهل صوت الشجار الذي ملَّا من سماعه.

الفصل الرابع

جانب غامض

كانت «نور» تتابع «يوسف» وهو يحكي باهتمام شديد، فكأنها ترى شخصا آخر غير الذي يتعامل معها في الحقيقة، حتى ملامح وجهه كانت أكثر راحة وانبساطا، أخذت تتأمله، إنها لأول مرة منذ أن رأته تركز في ملامحه، طوله المتوسط، وجهه الذي يجذبك إليه شيء غامض لا تعرف ما هو.. إن وجهه كان ليبدو وسيما لولا هذا الجرح الغائر على خده الأيسر..
التفتت «نور» على صوت «يوسف» يقول لها: انتي معايا؟
-آه.
نظر إليها «يوسف» ثم قال: أنا هفتح الشباك ده.. وعلى فكرة إحنا مفيش حوالينا هنا غير الصحرا والبحر، يعني ما تتعبيش نفسك وتصوتي.
نظرت «نور» إليه واكتفت بالصمت وكأن فكرة الصياح لم تعد تخطر على بالها الآن.
فتح «يوسف» الشباك لتجد «نور» رمال الشاطئ والبحر ممتدا أمامها فسألت «يوسف»: هو إحنا فين بالظبط؟
- في مكان بعيد أوي عن الفيلا بتاعتكوا.. ليه بتفكري تهربي؟
نظرت له «نور» وسادت فترة صمت ثم قالت: انت مش خايف من اللي ممكن يحصلك لو دوّروا علينا ولقونا؟
رد عليها «يوسف» بسخرية: لا.. أنا ما بخافش.
-انت مستبيع بقى.. وكل ده علشان حتة جواب؟ ما كتبتوش انت ليه؟
- أنا ما بعرفش أقرا واكتب.
-واشمعنى أنا بالذات؟ ليه تودي نفسك في داهية؟ انت عارف أنا أهلي ممكن يعملوا فيك إيه؟
- تقصدي أهلك يعني مامتك وباباكي ولا خطيبك؟ تفتكري مين فيهم قلقان عليكي أكتر؟
-وانت مالك؟ انت ما تعرفش خطيبي علشان تسأل عنه.

- أنا أعرف حاجات كتير أوي عنك.

-زي إيه؟

- بعدين هتعرفي.. اقترب منها ووضع القلم في يدها مرة أخرى ثم قال: أنا عايزك تتعودي إن مش كل حاجة انتي عايزاها هتتنفذ في ساعتها، الحياة مش سهلة ولا حلوة أوي زي ما انتي كنتي عايشاها.

يلا نكمل علشان ترجعي لخطيبك، زمانه قلقان عليكي.

***

أمسكت «نور» بالقلم وبدأت تستمع لـ«يوسف» مرة أخرى:

«فيه حاجات بتبقى صعبة أوي لما بتحصل وبتجرحك جرح مالوش دوا، خصوصا لو حصلت فجأة بدون مقدمات».

«من ذكريات يوسف».

بدأ «يوسف» في تذكر آخر يوم رأى فيه والده، كان يوما عاديا، رجع مع والده من الشاطئ ليلا بعد أن قضيا معظم الوقت في اللعب والرسم والصيد، كانا سعيدين للغاية، لكن هذه السعادة سرعان ما تبددت بمجرد دخولهما البيت؛ فقد كانت أمه تجلس على الأريكة المقابلة لباب المنزل ويبدو كأنها قضت ساعات في البكاء، أصيب الاثنان بالصدمة عندما رأَيَا منظرها، كان يبدو عليها الضيق الشديد وكأن شيئا كبيرا قد حدث، قالت

- «يوسف» ادخل الأوضة عند أخوك.. عايزة أكلم بابا شويّه. نظر «يوسف» إلى أبيه الذي أشار له بالدخول، وبمجرد دخول «يوسف» إلى غرفته بدأت آخر مشاجرة بين الأم والأب.

كانت الأم تمسك في يدها جوابا مختوما من وزارة التربية والتعليم وقالت للأب: تقدر تقولي إيه ده يا «صالح»؟ (وضعته في يده بعصبية شديدة).

- ده جواب فصلي من الشغل (كان يتحدث وتبدو عليه الصدمة من أن أمره قد انكشف).. أنا بس عايزك تسيبيني أشرحلك..

- تشرحلي؟ تشرحلي إيه؟ انت مفصول من الشغل بقالك شهر ونص.. شهر ونص وانا ما اعرفش، وكل يوم كنت بتخرج تروح فين؟ رد عليَّ.

- كنت بدوَّر على شغل في أي مرسم.

- رسم تاني.. تاني.. انت إيه؟ عايش في وهم؟ ولا عمر الرسم بتاعك ده هيأكلنا حتى عيش حاف، وبعدين اتفصلت من شغلك ليه؟

- عملت مشكلة مع المدير وهو اتبلّى عليَّ وقال إني خدت رشوة.. بس صدقيني أنا هتصرف وهلاقي شغل و...

- «صالح»، أنا خلاص.. زهقت.. صدقني ما بقاش فيه فايدة، إحنا ما بقاش ينفع إننا نعيش مع بعض.

- انتي بتقولي إيه؟

- اللي سمعته، انت عارف إحنا ظروفنا إيه دلوقتي؟ إحنا مديونين بألفات يا عالم، هنسدها ازاي؟ وانت مش قادر تعمل حاجة، وانا خلاص.. خلاص مش قادرة أعيش كده.

- طب وولادنا هيتبهدلوا كده من غير سبب.

- ولادك كده كده متبهدلين، انت فاكر إنك بتفيدهم بحاجة؟ هتفيدهم بإيه؟ الكبير وما اتعلمش منك حاجة غير مسكة الفرشة، والصغير هيكبر يلاقينا بقينا في الشارع من كتر الديون، عايز تعمل إيه؟ عايز تطلعهم فشلة زيك؟ عايز تبوظلهم حياتهم زي ما بوظت حياتك؟ صدقني الأحسن إنك تسيبهم وتبعد عنهم يمكن حالهم وحالي أنا كمان يتصلح.

كان والده لا يتحمل أن يسمع مثل هذا الكلام، بدا عليه الحزن الشديد وحاول أن يمنع دموعه من النزول.

- يعني هو ده اللي انتي عايزاه؟

- ده اللي لازم يحصل، أنا عايزة ورقة طلاقي توصل في أقرب وقت، ومش عايزاك تحاول تشوفني تاني أنا أو ولادي.

(سادت لحظة صمت).

- طب ممكن أسلم على الولاد قبل ما أمشي؟

أومأت الأم برأسها وجلست على الأريكة تحاول أن تخفي دموعها.

***

كان «يوسف» يجلس على السرير بغرفته يبدو عليه الخوف والوجوم، وكان أخوه نائما بجانبه لا يشعر بشيء، أما هو فقد استمع إلى بعض من كلام أمه وأبيه، وبعدها بدقائق دخل والده إلى الغرفة فوجده جالسا على السرير فاقترب منه قائلا: إيه يا حبيبي، انت لسه صاحي؟

أومأ «يوسف» برأسه ثم قال بقلق: انت لابس هدومك ليه؟ انت هتخرج؟

- آه.. أنا جيت أسلم عليك، أصلي هسافر فترة كده و...

- لأ انت هتمشي وتسيب البيت، صح؟ أنا سمعت ماما وهي بتقولك كده، كان «يوسف» يتحدث وصوته يدل على أنه سيبدأ في البكاء، رد أبوه: لأ لأ يا حبيبي، أنا هرجع تاني.

احتضنه أبوه: أنا عايزك أهم حاجة ما تخافش وما تعيطش، انت راجل البيت دلوقتي، كان «يوسف» يبكي بشدة ممسكا بذراع أبيه، مسح أبوه دموعه ثم قال: «يوسف» انت الكبير، أنا عايزك تسمع كلام ماما.. ماشي؟ وتذاكر وتبقى شاطر، انت خلاص كلها شهرين وهتبقى في أولى ابتدائي، صح؟ أومأ «يوسف» برأسه.. طب أمال إيه؟ ده انت خلاص كبرت، ولازم تخلي بالك من أخوك، انت عارف هو الصغير وما بيعرفش يعمل أي حاجة لوحده، ماشي؟

أومأ «يوسف» برأسه، طب يلا نام بقى وانا هغطيك قبل ما أمشي.

أجهش «يوسف» بالبكاء وظل ممسكا بوالده ويتحدث باكيا: لا.. ما تسيبنيش والنبي يا بابا.. ما تسيبنيش.

كان الأب يغالب دموعه: «يوسف».. انت كده هتزعلني منك، وبعدين؟ أنا قولتلك انت راجل البيت دلوقتي ولازم تبقى قوي.

أومأ «يوسف» برأسه وهو يبكي.

- يلا امسح دموعك وتعالى، أنا هفضل جنبك لحد ما تنام.

حمله الأب ووضعه في السرير وأخذ يمسح على رأسه حتى بدأ يهدأ ثم قال لأبيه: طب هو أنا هشوفك تاني؟

كانت الدموع قد ملأت عينيه -: انت عايزني أكدب عليك ولا أقولك الحقيقة زي ما اتعودنا أنا وانت؟

- لا قولي الحقيقة.

كانت دموعه تنهمر -: أنا مش متأكد إذا كنا هنشوف بعض تاني ولا لأ.

أجهش «يوسف» بالبكاء مرة أخرى، لكنه أصعب بكاء، ذلك الذي يكون بلا صوت، وحاول أبوه تهدئته.

- اهدى يا «يوسف».. اهدى يا حبيبي.. عارف؟ انت و«ياسين» هتوحشوني أوي لما أمشي، تعرف أنا هعمل إيه لما أحس إنكوا وحشتوني؟

- إيه؟ هتعمل إيه؟

- هرسم.. هقعد أرسملكوا صور لحد ما أحس إني ارتحت.. وانت كمان لما أوحشك اقعد ارسم.. ارسم صور ليَّ وليك ولماما ولأي حاجة انت بتحبها أو حتى بتكرهها، الحاجات اللي بنكرهها بتروح بمجرد ما نرسمها، مش أنا علمتك كده؟

أومأ «يوسف» برأسه وهو يبكي ثم قال: طب هو انت ليه هتمشي؟

- علشان دي مصلحتكوا يا حبيبي، أنا قعدتي معاكوا هتضركوا مش هتنفعكوا، أنا دايما بتعب الناس اللي بحبهم علشان كده أنا عايزكوا ترتاحوا.

سكت «يوسف» برهة ثم قال: بس أنا بحبك ومش تعبان ولا حاجة.

احتضنه والده بشدة ثم قال: وأنا كمان بحبك أوي، بس غصب عني.. يلا نام بقى.. أنا هفضل جنبك وهغنيلك كمان لحد ما تنام.. يلا يا حبيبي غمض عينيك.

أغمض «يوسف» عينيه اللتين امتلأتا بالدموع وظلت يداه ملتفتين حول

عنق والده وتمتع بدفء حضن أبيه للمرة الأخيرة فكان وجهه هو آخر ما رأته عيناه هذه الليلة.

***

كان المساء قد حل عندما توقف «يوسف» عن الحديث إلى «نور»، بدا عليه الضيق الشديد والحزن؛ فعلى الرغم من أن هذا الموقف لا يفارق ذاكرته أبدا، فإنه لم يتذكره بكل هذه التفاصيل إلا اليوم، توقفت «نور» عن الكتابة، كانت تنظر إلى «يوسف» وبدا عليها التأثر بما حكى.. حاولت أن تكسر حالة الصمت السائدة، خاصة أن «يوسف» كان يبدو عليه الوجوم الشديد.

-مش هتكمل؟

- لا، كفاية كده النهارده.

تحرك من مكانه وأمسك بالورق ووضعه بعيدا ثم أمسك بالحبل وقيَّد يديها كالعادة ثم قال: نامي علشان نصحى الصبح نكمل.. أنا عايز الموضوع ده يخلص في أقرب وقت.

ثم نام في فراشه وأعطاها ظهره.

كانت «نور» تستغرب من التناقض الشديد في شخصيته؛ فهو في الحقيقة جاف وعنيف جدا في التعامل، لكن عندما يبدأ حديثه عن الماضي يبدو كشخص آخر يثير تعاطفها، كانت تريد أن تعرف أي الشخصين هو.. ووجدت نفسها مهتمة شخصيا بهذا الجواب الذي تكتبه وتريد أن تستمع إلى تفاصيله دون توقف.

الفصل الخامس

خارج الغرفة المغلقة

كانت الأحوال في الفيلا غاية في الحزن والقلق، الأم ترقد على فراش المرض بعد أن مر حوالي ٣ أيام على اختطاف ابنتها، والأب لا يعرف ماذا يفعل.. هل يرعى الزوجة المريضة أم يبحث عن الابنة المخطوفة التي فشلت الشرطة حتى الآن في الوصول إلى أي أثر لها؟

لم يكن الأب يدري ما الخطوة التالية.. يبدو أن الشرطة وحدها غير قادرة على فعل شيء، ولا حتى الإعلام، فقد اعتقد أنه عندما تُنشر صورة ابنته في الجرائد قد يصل إليها أحد، لكن حتى الآن لم يعد عليه الأمر بغير الفضائح وسيرة العائلة التي أصبح الجميع يخوضون فيها بغير حق، ووصل الأمر إلى اتهام ابنته بالهروب مع عشيقها، وغيرها من الحكايات التي لم تتوقف منذ اختفاء «نور» يوم الزفاف.

في هذه الأثناء طرق أحد باب غرفة المكتب..

- ادخل.

دخل «حازم» إلى الغرفة، كان يبدو عليه التعب الشديد والإرهاق: إزيك يا عمو.

- إزيك يا «حازم»، اتفضل اقعد، كنت فين؟

- معلش ما قدرتش آجي إمبارح بالليل، خلصت في القسم متأخر وروَّحت تعبان.

- ورُحت القسم ليه تاني؟

- كانوا عايزيني أوصف الراجل اللي كلم «نور» وهي واقفة معايا، اللي كان لابس «اليوني فورم» بتاع الفندق.. قولتلهم مواصفاته ورسموه وقالوا إنهم هيحاولوا يوصلوله يمكن يكون عارف حاجة.

- يا رب يا «حازم»، أحسن أنا خلاص ما بقيتش عارف أعمل إيه، أنا خايف «رجاء» يجرالها حاجة من الزعل.

- بعد الشر عليها يا عمو، إن شاء الله نقدر نوصل ل«نور» قريب، وكل

ده يعدي.
- يا رب.. وأخبار الشركة إيه؟
- ماشية تمام.. أنا كنت هناك إمبارح الصبح وبلغتهم كل تعليمات حضرتك بخصوص الفترة الجاية.
- كويس، وأنا إن شاء الله هروح في أقرب وقت أشوف الشغل وصل لإيه، بقولك إيه، اطلع اقعد مع «رجاء» شويّه يمكن حالتها النفسية تتحسن، وأنا هروح القسم أشوف فيه حاجة جديدة حصلت ولا لأ.

***

فتحت «نور» عينيها لتجد «يوسف» جالسا بجوار الشباك الموجود بالغرفة، كان قد أحضر «الجورنال» ووضعه بجانبه وانتظرها إلى أن تستيقظ.

- صباح الخير.

نظرت له «نور» بضيق: ممكن تفك إيدي بقى؟ أنا حاسة إنها اتشلت.

فك «يوسف» يديها وأحضر لها «الجورنال»: أنا قولت أجيب «الجورنال» لما لقيت صورتك في أول صفحة.. ما كنتش أعرف إنك مهمة أوي كده.

شدت «نور» الجورنال من يده بلهفة وأخذت تقرأ وهي تردد: يا نهار اسود، يا نهار اسود.

- فيه إيه؟ إيه اللي مكتوب؟

-إيه اللي مكتوب؟ يا برودك يا أخي.. اللي مكتوب إني احتمال أكون هربت مع عشيقي، وإني ما كنتش عايزة أتجوز «حازم» علشان كده سيبت الفرح في آخر لحظة، وإن أمي تعبانة وبتموت.. بدأت «نور» بعد ذلك في البكاء واقترب «يوسف» منها قائلا: طب اهدي.. بكرة لما ترجعي يعرفوا الحقيقة.

-بكرة؟ مفيش حاجة اسمها بكرة، انت لازم ترجعني لأهلي دلوقتي، انت فاهم؟ (كانت تتحدث بعصبية شديدة).

جلس «يوسف» بجوار الشباك ولم يرد عليها.

اقتربت «نور» منه: انت ما بتردش عليَّ ليه؟ بقولك رجعني بدل ما أموت نفسي وأرتاح منك.

- انتي مش هترجعي غير لما تخلصي المطلوب منك.

-وأنا مش هكتب حرف تاني.. أنا لازم أرجع، انت فاهم؟ أنا لازم أطمن على أمي.

جلست «نور» وأخذت تبكي وتهمهم قائلة: «ليه بس كده يا ربي؟ أنا

عملت إيه؟».. كانت تبكي بشدة لدرجة جعلت «يوسف» يتعاطف معها.

- طيب بطلي عياط وانا هتصرف..

نظرت «نور» له ثم خفضت وجهها وأكملت البكاء مرة أخرى.

- قولتلك لقيت حل.. ثم صاح: بطلي عياط.

سكتت «نور» خوفا ونظرت له.

- يا ساتر.. أنا هخليكي تكلمي مامتك تطمني عليها وتطمنيها هي كمان عليكي.

-بس...

- مفيش بس.. هو ده الحل اللي عندي.. غير كده اقعدي عيطي طول النهار وأنا ولا هتفرق معايا.

نظرت له «نور» بضيق ثم قالت: طيب.. بس هنكلمها إزاي؟

- هنخرج من هنا طبعا.. وأنا عارف مكان فيه تليفون، بس قسما بالله تحاولي تعملي أي حركة كده ولا كده هوريكي الوش التاني.

***

كانت هذه أول مرة تطأ فيها قدما «نور» الشارع منذ ٣ أيام، نظرت إلى المكان حولها، إنها إن لم تكن مخطوفة لكانت استمتعت بسحر هذه البقعة التي لا تعرف ما هي.. فالبحر ممتد أمامها والصحراء تحيط بها من كل الجوانب، وكانت هناك غرف كالغرفة المحبوسة بها، لكنها بعيدة بعض الشيء ويبدو أنها لا يسكنها أحد حاليا، خاصة أن هذا الشتاء القارس لا يشجع أحدا أن يأتي طواعية إلى هنا.

أخذت تتأمل المكان حولها وكأنها تدرسه إلى أن اقترب «يوسف» منها وأمسك كتفها بقوة ووضعها داخل السيارة، وربط يديها معا في عجلة القيادة (الدريكسيون) ثم أغلق الباب وانتقل إلى الجانب الآخر وركب وبدأ في تشغيل السيارة، كانت «نور» تجلس بوضع غير مريح فهي تميل بشدة إلى الأمام وتكاد تلتصق بـ«يوسف».

-وأنا طول الطريق هفضل قاعدة كده؟

- آه.

-إيه الافترا ده؟ ما تفك إيدي، وانا يعني هعملك إيه؟

انطلق «يوسف» بالسيارة دون أن يرد عليها، وفي منتصف الطريق قالت له: أنا ضهري وجعني، طب فك حتى إيد واحدة.. أنا تعبت.

نظر إليها «يوسف» وهو يقود: انتي عارفة إنك رغاية أوي.

-على الأقل مش مجرمة أوي.

- طب ما تخلينيش أستعمل أخلاق الإجرام وأرجعك الكبينة تاني.

-ده على أساس إنك من ساعة ما خطفتني بتعاملني بأخلاق الفرسان؟

أوقف «يوسف» السيارة فجأة: انتي عارفة أنا ممكن أعمل فيكي إيه؟ ها؟

نظرت له «نور» بخوف.

- أنا ممكن أقتلك وأرميكي هنا في الصحرا.. أنا عايزك تسكتي.. تسكتي

خالص، دماغي صدعت من صباحية ربنا.
انطلق «يوسف» في طريقه مرة أخرى.
استأنفت «نور» حديثها بصوت منخفض: اقتلني، خليني أرتاح من البهدلة دي.
يوسف (كان قد يئس من أن تصمت): ياااااااااااااااارب.. ارحمني.
لحظات ووقف «يوسف» بالسيارة أمام بنزينة على جانب الطريق، ثم قال: البنزينة دي فيها تليفون، بس هتنزلي ازاي بفستان الفرح ده؟
-والله ما اعرفش.. ما عملتش ليه حساب الموضوع ده في خطتك العبقرية؟
عض «يوسف» على شفتيه من الضيق وفتح باب السيارة وهمَّ بالخروج، لكنه استدار ونظر لها وكأنه أدرك شيئا ما، ثم فتح تابلوه السيارة وأخرج منه شريطا لاصقا.
كانت «نور» تتابعه باستغراب: إيه؟ انت هتعمل إيه؟
وضع «يوسف» البلاستر على شفتي «نور» ثم أمسك بقطعة كبيرة من القماش ووضعها على زجاج السيارة الموجود بجانبها حتى لا يراها أحد إذا مر بسيارته على الرغم من أن ذلك قلَّما يحدث في هذه المنطقة الصحراوية.
كانت «نور» تتفوه بكلمات غير مفهومة بسبب هذه اللاصقة، لكن «يوسف» تجاهلها تماما ونزل من السيارة وأغلق الباب.
توجه «يوسف» بعد ذلك إلى البنزينة، كانت تبدو وكأنها مهجورة، إلا أنه رأى شخصا نائما عند مكان دفع الحساب، بدأ حديثه قائلا: سلامو عليكو.
لم يستيقظ العامل فاستأنف حديثه لكن بصوت أعلى: يا باشمهندس..
صحا العامل مفزوعا. سلامو عليكو.
رد العامل: وعليكم السلام.
- بقولك يا أخ، مفيش تليفون قريب هنا؟

- فيه هنا تليفون.
- لا أصل إحنا هنكلم موبايل.
- عندنا تليفون عادي وموبايل.
- بس أنا عايز تليفون غير اللي هنا - كان يتحدث بنفاد صبر.

نظر له العامل باستغراب ثم قال: في ضهر البنزينة فيه تليفون، بس محتاج فلوس فكة علشان تحطها فيه.

أخرج «يوسف» ١٠ جنيهات من جيبه ثم قال: طب خد دي فكهالي وهات نصها والباقي خليهولك.

فعل الرجل ما طلبه منه «يوسف» وشكره، ثم خرج «يوسف» من البنزينة وتوجه إلى السيارة وبدأ في القيادة إلى أن التف وراء البنزينة..

كانت «نور» تنظر إليه بضيق شديد.

وقف «يوسف» أمام التليفون وتأكد أن العامل لا يتبعهما ثم نزع البلاستر من على شفتي «نور» فصرخت بشدة، ما دفعه إلى أن يضع يده على فمها.

- بس، هتفضحينا.

ثم استكمل فك يديها وقال وهو ما زال ممسكا بهما: عارفة لو عملتي أي حاجة.. هقتلك.

شدت «نور» يديها منه ثم نزلت من السيارة.

***

بدأ «يوسف» يضع النقود في التليفون ويحاول الاتصال، لكن دون فائدة.
-هو ده التليفون اللي مرمطتني علشان نوصل له؟ ده شكله موصل على القمر.
- اسكتي شويّه.
سادت فترة صمت ثم قال «يوسف»: أهه، إدّى جرس.
أمسكت «نور» بالسماعة إلى أن انفتح الخط.. كان صوت «حازم»: ألو.
-ألو.. مين معايا؟
- «نور».. «نور».. يا حبيبتي انتي فين؟
-«حازم».. ازيك يا حبيبي.. وحشتني أوي.
كان «يوسف» ينظر إليها بشيء من الضيق عندما سمعها تتحدث إلى «حازم» بهذه الطريقة وأشار لها بالإسراع.
-«حازم».. اديني ماما يا «حازم» بسرعة.
- طب قوليلي انتي فين يا «نور».. مين اللي خطفك؟
كان «يوسف» يمسك بالسماعة وعلى وشك أن يغلق الخط.
-مش هقدر أقولك حاجة يا «حازم».. اديني ماما بسرعة.
لحظات وسمعت «نور» صوت والدتها.
- «نور».. «نور» حبيبتي.. انتي فين؟
-مش عارفة.. مش عارفة يا ماما (كانت عصبية «يوسف» بدأت تزيد) المهم يا ماما ما تخافيش عليَّ أنا كويسة (بدأت عينا «نور» تدمعان) انتي خلي بالك من نفسك يا حبيبتي وادعيلي، أنا خايفة أوي يا ماما.
أمسك «يوسف» بالسماعة وأغلق الخط وأمسك «نور» بقوة وتوجها نحو السيارة وربطها بنفس الوضعية السابقة، وطوال الطريق وهما عائدان لم يتحدثا مطلقا؛ فقد كانت دموع «نور» تنهمر دون أي صوت وكان «يوسف» ينظر إليها من حين لآخر دون أن يعلق.

الفصل السادس

ألم الفراق

كانت الأم لا تصدق أنها استمعت إلى صوت ابنتها وتأكدت من أنها لا تزال حية، أما الأب فقد ذهب إلى قسم الشرطة مرة أخرى ليبلغهم بما حدث، وبالفعل حاولوا الوصول إلى مصدر المكالمة لكنهم لم يستطيعوا؛ نظرا لقصر مدتها.. لكنهم أخبروه بأنهم قد اقتربوا من الوصول إلى الخادم الذي تحدثت إليه «نور» قبل اختفائها، فساد المنزل نوع من الهدوء الحذر؛ فعلى الأقل قد حدث في هذه الساعات أي تطور بعد أن كانوا قد وصلوا إلى طريق مسدود، وانعكس هذا على صحة الأم التي انتقلت لأول مرة من سريرها لتجلس في حديقة الفيلا لعل نفسها تهدأ قليلا وتشعر بالسكينة في هذا الهواء العليل.

أما «نور» فقد كانت حالتها أسوأ من كل يوم؛ فقد شارف النهار على الزوال وهي ترفض تناول أي طعام، كانت تتحاشى النظر إلى «يوسف»، لكن بعد فترة تحدثت إليه قائلة: ممكن نبدأ كتابة عشان نخلص وأخرج من السجن ده؟

- ممكن.. بس مش هتاكلي.

-لأ.

نظر إليها «يوسف» ثم قال: زي ما تحبي.

وأحضر الورق والقلم وأعطاها لها ثم قال: أبدأ؟

-آه.

***

كانت أولى كلمات «يوسف»: «فيه حاجات بنحس بيها بس ما بنعرفش نتكلم عنها، يعني مثلا إحساسي بعد ما بابا مشي كان غريب، كنت حاسس إني ما بقيتش عايش، إني مش قادر أشوف أي حاجة حلوة حواليَّ، كأني من ساعة ما غمضت عينيَّ ونمت وهو قدامي ما فتحتهاش تاني.. لما صحيت لقيته علقلي آية الكرسي في رقبتي ومن ساعتها ما شيلتهاش غير لما اديتهالك قبل ما انت كمان تمشي وتسيبني».

من ذكريات «يوسف»

مضت الأيام بعد فراق الأب بطيئة وصعبة، كانت الأم تحاول توفير مصاريف البيت وسداد الديون المتراكمة، لكن الضغوط كانت تزداد عليها بشكل لا يُحتمل، وما زاد الأمور صعوبة أنها طوال ٣ شهور لم تدفع إيجار الشقة وباتت مهددة بالطرد من المنزل، وبالفعل لم يفُت بعد ذلك سوى شهر واحد وكان مالك العقار قد طردهم منه، واضطرت للإقامة مع والديها، لكن المنزل لم يكن يحتمل، فيكفي أخوها وزوجته وأولادهما الثلاثة الذين يعيشون في نفس المنزل ويعاملونها وأولادها بسوء شديد، كان أخوها يفكر باستمرار في كيفية التخلص منها، واقترحت زوجته الحل الأمثل بالنسبة لها، وهو أن يبحث لأخته عن عريس، ولم تكتفِ باقتراح الحل فقط، بل بالفعل أوجدت العريس، وأقنعت الأخ والوالدين به وبأنه الحل الوحيد لمشكلة المنزل الذي اكتظ بالبشر والمصاريف التي لم تعد تُحتمل، وبدأ الجميع في الضغط على «أمل» التي وقفت مشكلة كبيرة عائقا أمام قبولها هذه الزيجة، هي أن العريس يشترط ألا يسكن معه الولدان وألا تراهما بانتظام، وهي في الحقيقة كانت ترفض ذلك بشدة، لكن هددها أخوها بالطرد من المنزل إذا لم توافق، وعندما سألته ماذا تفعل بولديها اقترح عليها أن ترسلهما إلى عمهما في القاهرة.

«زي البضاعة، صناديق بنتنقل من مكان للتاني».. هكذا عبَّر «يوسف» - في الجواب - عن إحساسه في تلك الفترة؛ فعلى الرغم من أنه كان يتجنب الحديث إلى والدته منذ أن تركهم والده، فهو يعتبرها السبب الأساسي في ذلك، فإنه تألم كثيرا عند فراقها، فقد كانت تحبه حبا جما وفعلت ذلك كله لتحقيق مصلحته وأخيه، لكن يبدو أنها لم تعد من يتحكم بزمام الأمور الآن، إنما القدر.

شاهد «يوسف» المأذون وهو يكتب الكتاب في منزل جده، وبعدها بدقائق دخلت أمه إلى الغرفة التي كان جالسا فيها هو وأخوه مرتدين ملابسهما كاملة ومستعدين للرحيل، كانت الأم تبكي بشدة و«ياسين» يبكي وينتفض من البكاء، كان يحاول تهدئته دون أن يفلح، وشعر أن يوم فراقه لأبيه يتكرر، لكن تعبه اليوم أشد؛ فهو حتى لا يستطيع أن يبكي ولا يريدها أن تعرف أنه حزين لفراقها، إنه يريد أن يحبها دون أن تعلم هي ذلك، بل يجب أن تعتقد أنه يكرهها وأنه عقابها على ما فعلت، أما قلبه الذي يعتصر بداخله فلن يعلم أحد عنه شيئا سواه.

اكتفت الأم بأن تودعهما بدموع منهمرة كانت تحتضنهما وتكرر: سامحوني.. غصب عني.

لكن حتى لحظات الوداع لم تكتمل؛ فالزوج كان ينادي عليها مستعجلا، تركت حضن «ياسين» بمشقَّة وذهبت لتحتضن «يوسف»، لكنه ابتعد عنها، في هذه الأثناء انفتح الباب، ليظهر الزوج: مش يلا بقى؟ هنتأخر.

أومأت «أمل» برأسها وهي تبكي، كان «يوسف» يعرف أن هذا الزوج قد حل محل أبيه وأنه السبب في فراق والدتهما؛ لذلك كان لا يحتمل حتى النظر إليه.

خرجت أمه من الغرفة وأغلق الزوج الباب، لكن «يوسف» ذهب بسرعة وفتح جزءا بسيطا من الباب دون أن يشعر أحد، وظل يتابعها في الطرقة،

كان يفكر في أن يجري عليها ويحتضنها، لكن شيئا بداخله كان يمنعه من القيام بذلك، وبمجرد أن سمع صوت باب الشقة يُغلق أغلق باب الغرفة واتجه مرة أخرى لأخيه الذي كان يبكي بشكل متواصل، استدار ليجده يشب ويحاول الوصول إلى الشباك ليرى والدته ويودعها، فذهب إليه وحمله لكي يستطيع أن يراها، وظل أخوه ينظر ويلوح لها بيديه إلى أن ركبت السيارة ومضت في طريقها.

***

لم تفُت سوى عدة دقائق بعد رحيل والدته، حتى فتح خالهما باب الغرفة، كان الأخوان يجلسان بصمت على السرير وعلى وجهيهما الوجوم الشديد والحزن.

- يلا، انتوا جاهزين؟

- آه.

- طب يلا علشان معاد القطر ما يفوتش.

- «١٠٠٠ خطوة هي المسافة من بيت جدو لحد محطة القطر، كنت بعدهم وانا ماشي، كان أصعب طريق مشيته في حياتي، الطريق ده أنا مشيته مع بابا كتير بس عمري ما حسيت إنه طويل كده، ساعتها مسكت إيدك علشان ما تتوهش مني، كنت حاسس إني خلاص ما بقاش فاضل لي غيرك في الدنيا، وخالك كان سابقنا بكتير كأنه جارر كلبين وراه، كأنه كان بيعد الدقايق لحد ما يسلم البضاعة اللي معاه لحد تاني، ويرتاح هو من المسئولية».

بعد ركوب القطار جلس الخال و«يوسف» على كرسيين متجاورين، أما «ياسين» فقد جلس على رجلي أخيه وكان يغالبه النعاس من حين لآخر فضمه «يوسف» وأسنده إلى صدره إلى أن ذهب في نوم عميق، أما هو فلم

يستطع ذلك؛ فقد كان باله مشغولا بما هما مقدمان عليه، إنه ولأول مرة سيرى عمه، حتى إنه لم يكن يعرف أن اسمه «يحيى» سوى من وقت قريب منذ أن تقرر إرسالهما إليه، كما أنه لأول مرة أيضا يذهب إلى القاهرة، إنه لم يسمع عنها سوى في التليفزيون ومن حكايات والده، فكان التشوق لرؤية ما هو قادم يخفف عنه بعضا من الحزن الذي يشعر به داخله.

الفصل السابع

في القاهرة

كانت القاهرة بالنسبة لـ«يوسف» مخيفة للغاية؛ فهي - كما وصفها له أبوه - مزدحمة جدا، فبمجرد نزولهما من القطار كانت الناس تحيط بهما من كل الجوانب، إنها مختلفة تماما عن المكان النائي الذي كانا يعيشان فيه، في مرسى مطروح.

أمسك «يوسف» بيد أخيه بقوة خوفا عليه من أن يضيع وسط هذا الزحام الشديد إلى أن وصلا إلى سيارة أجرة استوقفها خاله، وطلب منها أن توصلهم إلى بولاق الدكرور.

كان الطريق طويلا، لكن «يوسف» و«ياسين» انشغلا في متابعة أنوار المحلات وضوضاء السيارات المحيطة بهما، كانا يستغربان كثيرا من هذا الجو الصاخب، بعد ذلك دخل التاكسي إلى منطقة شعبية مزدحمة ثم توقف أمام بيت متهالك من الطراز القديم، حينئذ أمرهما خالهما بالنزول.

دخلوا بعد ذلك إلى المنزل وطرقوا الباب ففتح لهم شخص ضخم حيَّاه خالهما قائلا: ازيك يا «يحيى»؟

فرد عمهما التحية قائلا: ازيك يا «رجب»، تعالى اتفضل.

***

بمجرد دخولهما جلس «يوسف» و«ياسين» على أريكة في الصالة، أما عمهما وخالهما «رجب» فقد جلسا على كرسيين مقابلين لهما، لكن المسافة بينهما كانت بعيدة بحيث لم يكن باستطاعة «يوسف» سماع ما يتحدثان حوله.

أخذ «يوسف» في هذه الأثناء يتأمل الشقة، كانت متوسطة الاتساع، تتكون من ثلاث غرف متجاورة، بالإضافة إلى هذه الصالة التي يجلسون بها والتي تنقسم إلى جزأين.

شيء آخر لفت انتباه «يوسف» لدرجة جعلته يخرج دفتر رسوماته الذي أهداه له والده ويبدأ في رسمه، وهو «عمه»، إن شكل عمه ومظهره كانا غريبين للغاية ومختلفين تماما عن شكل والده وملامحه؛ فعمه كان ضخما، وصوته سميك، وبمجرد النظر إليه ينتابك شعور مزدوج بالخوف والحذر، إنه حتى لا يمكن أن يكون ممتلكا لموهبة كالتي يمتلكها والد «يوسف»، بل إن «يوسف» لم يستطع أن يصدق أنهما أخوان، أثناء الرسم كان «ياسين» ينظر إلى الورقة ويضحك، فقد رسم «يوسف» عمه أكثر سمنة من الحقيقة وملامحه أكثر غلظة لدرجة حوَّلت شكله المخيف إلى مضحك.

في هذه الأثناء كان أولاد عمه الأربعة يفتحون غرفة نومهم ويختلسون النظر إلى «يوسف» وأخيه بين الحين والآخر.

بعد أن أتم الخال كلامه، سلم على عمهما وخرج دون أن يودعهما بكلمة أو حتى ينظر إليهما.

نظر إليهما عمهما بعد ذلك: مين فيكوا «يوسف»؟

رد «يوسف»: أنا.

- وانت «ياسين»، صح؟

أومأ «ياسين» برأسه إيجابا.

- «طب ادخلوا غيروا هدومكوا في الأوضة دي».
يا «يسرية» خديهم ودخليهم جوه.
كانت «يسرية» زوجة عمهما لا تختلف عنه كثيرا، فقد كانت ضخمة، قاسية الملامح، ويبدو أن بها حقدا وخبثا لا تستطيع أن تخفيهما، اصطحبتهما إلى الغرفة وهي تقول: تعالوا، اتفضلوا.. نوَّرتونا (كانت تنظر إلى «يحيى» وهي تتحدث، وكان يبدو على أسلوبها التهكم والسخرية).
دخل «يوسف» وأخوه إلى الغرفة ليجدا بها ٣ أسرة قريبة من بعضها البعض إلى حد ما، وكان أبناء عمه ٣ أولاد وفتاة، حسين الأكبر بينهم يبلغ حوالي العاشرة من العمر، أما الباقون فهم في مثل سن «يوسف» تقريبا، والفتاة تبدو أصغر منه بعامين تقريبا، كانوا يجلسون على السرير ويحدقون إليهما باستمرار.
تحدثت زوجة عمهما قائلة: معاكوا هدوم ولا أجيبلكوا؟
- لأ معانا.
- طب يلا غيروا عشان تناموا، كفاية سهرتونا، الساعة بقت واحدة (همَّت بعد ذلك بالخروج من الغرفة).
مال «ياسين» على أخيه قائلا: «يوسف»، هو إحنا هنغير هنا قدامهم؟
نظر «يوسف» إلى أخيه وكأنه لفت انتباهه إلى شيء مهم.
استوقفها «يوسف» قائلا: طنط.. هو إحنا هنغير هدومنا هنا؟
- آه يا روح طنط، مش عاجبك المكان ولا إيه؟
- قدامهم يعني؟
- آه ما تخافش، مش هياكلوكوا.
سكت «يوسف» إلى أن خرجت زوجة عمه، وبعدها قال «حسين» ابن عمه الأكبر: هو انتوا ولاد عمو «صالح»؟
أومأ «يوسف» برأسه: آه.

رد «حسن» الأخ الأصغر: بابا قال إن انتوا جايين تعيشوا عندنا علشان ما بقاش ليكوا بيت.
استفز كلامه «يوسف» فأوشك على الرد، لكن سبقه «ياسين»: إحنا عندنا بيت أحلى منكوا.
رد «مراد»، أصغر أولاد عمه: يا سلام، أمال سيبتوه وجيتوا ليه؟
فأجاب «حسين» عن سؤال أخيه: علشان مامتهم اتجوزت واحد تاني وسابتهم.
بدا على «يوسف» الضيق الشديد: ماما ما سابتناش، ومالكش دعوة بينا.
استكمل «ياسين» كلام أخيه: آه ما تكلمناش.
كان صوتهم قد علا قليلا فدخلت «يسرية» مرة أخرى وتحدثت بحده: إيه؟ فيه إيه؟ صوتكوا عالي كده ليه؟
- هو اللي بدأ يا ماما وشتمنا كمان.
- أنا ما كلمتوش، هو اللي قالي...
قاطعته «يسرية»: بس انت وهو مش ناقصة صداع، يلا اتخمدوا (كانت تشير إلى أولادها)، وانتوا شوفوا هتغيروا ولا هتعملوا إيه؟ ومش عايزة صوت خلونا ننام.
أغلقت النور بعد ذلك أثناء خروجها فاضطر «يوسف» و«ياسين» إلى النوم بملابسهما ونام «ياسين» على أريكة موضوعة تحت الشباك، أما «يوسف» فقد نام على الأرض دون حتى أن يضع وسادة تحت رأسه.

***

استيقظ «يوسف» في الصباح على صوت زوجة عمه تدعوهما وأولادها إلى الإفطار، خرج الجميع إلا هو و«ياسين»؛ فقد استغلا فرصة أن الغرفة أصبحت خالية وبدّلا ملابسهما، ثم خرجا لتناول الفطور، لكن الوقت كان قد فات فلم يجدا منه إلا بقايا..

بعد قليل من الوقت خرج عمه إلى العمل، أما أولاد عمه فقد ذهبوا يؤدون نشاطهم اليومي وهو اللعب في الحارة مع باقي الصبية ولم يبقَ في المنزل سوى «يوسف» و«ياسين»، جلسا يشاهدان التليفزيون فترة إلى أن جاءت زوجة عمه فنظرت إليهما قائلة: انتوا هتفضلوا تتفرجوا على التليفزيون طول النهار ولا إيه؟

أومأ لها «ياسين» برأسه مؤكدا، أما «يوسف» فقد نظر إليها واكتفى بالصمت.

استأنفت حديثها مرة أخرى: لا مش هينفع كده، انت يا ابني - أشارت إلى «يوسف» - انت مش صغير علشان تقعد كده قدام التليفزيون، تعالى ساعدني.

- أساعدك في إيه؟
- تعالى وأنا أقولك تساعدني في إيه..

أنا عايزاك تنزل عند المحلات اللي تحت وتجيبلي الحاجات دي، ولما ترجع اقعد نضف شويِّة الخضار اللي أنا حطاهم في السَبَت دول، وبعد كده اكنس الشقة ونضَّف المطبخ، علشان أنا طالعة عند جارتنا وعايزة أنزل ألاقي الحاجة جاهزة وأطبخلكوا على طول، ولا انتوا هتفضلوا قاعدين كده وتاكلوا على الجاهز؟

كان «يوسف» ينظر إليها بضيق وخوف، فكان يشعر أنه مضطر لتنفيذ مطالبها، وبالفعل فعل كل ما أمرته به، وحتى عندما عادت إلى المنزل جعلته يقف إلى جانبها في المطبخ ليساعدها، فكان يغسل الأطباق

ويقطع الطعام وقضى اليوم كله ينفذ طلباتها، وأصبحت هذه هي مهمة «يوسف» كل يوم، أما أخوه فكانت سنه الصغيرة هي الشيء الوحيد الذي رحمه من هذا الاستعباد، ومرت الأيام على هذا المنوال، وكانت «يسرية» ترى أنها ذات ذكاء حاد؛ فهي قد حولت استضافتها لهذين الطفلين من عبء إلى فائدة؛ فـ«يوسف» يقوم بكل شيء في المنزل تقريبا، لكن بعد فترة وجدت أنها من الممكن أن تستغل هذا الطفل وتعود عليها فائدة أكبر من مجرد الراحة من أعباء المنزل، لكنها كانت تنتظر موافقة زوجها على ما تنوي فعله!!

وبالفعل، في إحدى الليالي وقبل النوم بدأت «يسرية» في إطلاع زوجها على فكرتها فبدأت كلامها قائلة: «يحيى»، أنا عايزة أقولك على حاجة.

- إيه.. خير؟

- لا ما تقلقش.. بس أنا شايفة إن مصاريفنا زادت أوي بعد ما ولاد أخوك جم قعدوا عندنا.

- آه والله ولسه الدراسة جاية، وهنضطر نقدملهم مع ولادك في المدرسة.. أنا مش عارف هنلاحق على المصاريف دي منين؟

- مدرسة؟ مدرسة إيه؟ لا إحنا مش هنقدر نصرف على العيال دي في المدرسة، هو إحنا كنا خلفناهم ونسيناهم؟

- قصدك إيه؟

- قصدي إن العلام ما بقاش بينفع اليومين دول، يشتغلوا أحسن.

- هتشغلي عيل عنده ٥ سنين.

- لا طبعا، أنا بتكلم على «يوسف»، هو صغير؟ ده كان زمانه في تانية ابتدائي، وبعدين ده ناصح وفاهم كل حاجة ولو اشتغل هيشيل عنك كتير.

انتبه «يحيى» إلى كلامها وفكر قليلا ثم قال: لا يا شيخة.. بدل ما يجراله

حاجة، ده برده عيل صغير.
- هيجراله إيه يعني؟ ده انت كده هتفيده.
- وهيشتغل إيه بقى؟
- بدت على «يسرية» ملامح الراحة، فقد أحست أن زوجها قد اقتنع بالفكرة.
- انت عارف أم محمد جارتنا؟
- آه.
- بص يا سيدي، قالتلي إنها تعرف واحدة بتاخد العيل طول النهار وتشغله أي حاجة، يعني يمسح عربيات، يبيع مناديل، أي حاجة، وبتدي أهله اللي فيه النصيب.
- «يحيى» - بدا عليه الانزعاج -: يعني إيه؟ أنا مش فاهم.. قصدك بتأجّر العيال يعني؟
- يعني، حاجة زي كده.
- لا طبعا.. انتي مجنونة؟ هأجر الواد؟!
- وطي صوتك، مالك؟ فيه إيه؟ هي هتموته؟ ما هو هيرجع آخر اليوم، وبعدين انت عارف دي بتدفع في العيل كام؟ ٥٠ جنيه في اليوم.. يعني ١٥٠٠ جنيه في الشهر، أد ما بتبقض في الشركة بتاعتك دي ١٠٠ مرة.
سكت «يحيى» برهة ثم قال: بس افرضي الواد حصل له حاجة؟
- مش هيحصل له يا اخويا، أم محمد ضامناها على الآخر، وبعدين لو مش موافق شوفلك بقى صرفة تعدل حالنا المايل ده علشان الـ٣٠٠ جنيه بتوعك ما بقوش يعملوا حاجة.. تصبح على خير.
نامت «يسرية»، أما «يحيى» فقد جعله كلامها يفقد القدرة على النوم فوجد نفسه في أرق متواصل إلى أن جاء الصباح وأخبر «يسرية» بموافقته على اقتراحها، أما هي فلم تكن تستطيع أن تخفي سعادتها بموافقته، فقد

أحست أن هذين الولدين قد أرسلهما الله لها لتتحقق رغباتها وتتحسن أحوالها.

***

بعد مرور يومين، كانت «يسرية» قد رتبت كل شيء؛ فقد أخبرتها جارتها أن تلك السيدة ستمر عليها في الغد فجرا لتأخذ «يوسف» وأنه لن يعود قبل منتصف الليل، أما ماذا سيعمل فلم تخبرها.

في ليل هذا اليوم كان «يوسف» يشاهد التليفزيون معهم جميعا بعد أن فرغ من أعمال المنزل كالمعتاد، لكنه لم يجلس سوى عشر دقائق، فقد نظرت «يسرية» في الساعة فوجدتها العاشرة فقالت له: «يوسف» ادخل نام يلا.. الوقت اتأخر.

- بس أنا عايز أتفرج على التليفزيون شويّه.
- يلا اسمع الكلام.. مش عايزة مناهدة، ادخل نام.

دخل «يوسف» لينام على الأرض كما تعود، ومع أذان الفجر شعر بيدَي زوجة عمه تربتان على كتفه بقوه وترفعان رأسه من على الوسادة.

فتح «يوسف» عينيه متعبا، فكان لا يكاد يرى شيئا.

- قوم يا «يوسف»، قوم عايزاك.

أمسكته بيديها وأوقفته وسارت به إلى الحمام، كانت يداها هما اللتين تسيرانه أمامها؛ فقد كان يشعر أنه يحلم، لكن الماء البارد الذي ألقت به على رأسه ووجهه وأغرق ملابسه هو ما أفاقه.

- آه.. أنا بردان.
- معلش دلوقتي تغير هدومك.

ظل يرتعش بين يديها إلى أن ساعدته في ارتداء ملابسه.

- هو إحنا رايحين فين؟
- انت هتروح مشوار كده.
- أنا عايز أنام.

أستأنفت «يسرية» ما تفعله وساعدته على ارتداء ملابسه دون أن تعيره أي اهتمام.

دقائق وسُمع صوت طرق على الباب، أمسكت بيد «يوسف» وسحبته إلى الباب، فتحت فوجدت جارتها وبجوارها سيدة قاسية الملامح ترتدي جلبابا أسود وطرحة تغطي نصف رأسها، قالت جارتها: سلامو عليكو، إيه العسل جاهز؟ ثم وضعت يدها على ذقنه فخاف ورجع إلى الوراء.

استأنفت الجارة كلامها مع «يسرية»: أم طارق اللي قولتلك عليها.

- آه.. أهلا وسهلا.
- أهلا بيكي.. يلا عشان ما نتأخرش.
- يلا يا «يوسف».

رجع «يوسف» إلى الوراء ورفض الذهاب.

- يلا يا «يوسف».
- لا.. أنا مش هخرج.. مش هخرج مع الست دي.
- طب خلاص أجيلكوا يوم تاني.
- لأ لأ، استني بس دقيقة واحدة.

جذبت «يسرية» «يوسف» إلى الداخل ونهرته قائلة: إيه الدلع ده؟ فيه إيه؟

«يوسف» (كان يبدو على ملامحه الخوف): أنا مش عاوز أخرج مع الناس دول.. أنا خايف.

- خايف من إيه؟ بلاش دلع.. يلا روح، أهم حاجة تسمع كلامها.

شدته نحو الباب وأخرجته ثم أمسكته أم طارق بقوة وأعطت «يسرية» الـ٥٠ جنيها وغادرت.

الفصل الثامن

الطريق إلى المجهول

«في الشارع الحياة مختلفة خالص، عالم تاني، ما يعرفش قوانين البشر، ولا حتى قوانين الغابة.. الحيوانات أحيانا بيكون عندها أخلاق وقيم مش عند البني آدمين، هو ده اللي اتعلمته في الشارع، بس اتعلمته متأخر.. متأخر أوي».. كانت تلك هي الكلمات الوحيدة التي استطاع أن يعبر بها «يوسف» عمّا مر منذ أن أمسكت هذه السيدة بيده.. كانت تسير مسرعة، وكأنها لا تشعر بيده المثبتة بقوة بين يدها، وهو لم يكن يستطيع أن يجاري خطواتها فيتعثر وينهض دون أن تبالي هي بما يحدث أو تقف للحظة، طريق طويل مشاه «يوسف» مع هذه السيدة إلى أن وصل إلى مقابر تقع في منطقة نائية، شعر بالخوف الشديد وحاول أن يسرع خطواته؛ فهو في هذا المكان بالذات لا يريد أن تفلت يده من يديها، دخلت هذه السيدة بعد ذلك إلى مقبرة ذات باب حديدي مغطى بالصدأ، وبمجرد أن فتحت الباب رأى «يوسف» مشهدا لن ينساه أبدا، أطفال.. أطفال كثيرون، تتراوح أعمارهم بين السنة الواحدة والعشر سنوات، حتى إنه وجد بعض الأطفال الرضع، كان الجميع يجلس على الأرض في طوابير منتظمة وكان الوقت قد حان ليأخذ «يوسف» مكانه في الصف، أشارت له السيدة قائلة: ادخل.

دخل «يوسف» مترددا وجلس خائفا في الصف، وبعد فترة بدأ بعض الأشخاص في التوافد على المكان.. كانت العملية تتم بنظام شديد، يدخل الشخص ويختار طفلا وتخبره السيدة عن السعر فيدفع لها ثم يأخذه ويمضي، أما ما يحدث له بعد ذلك فهو شيء لم يكن يعرفه «يوسف» حتى الآن، بعد دقائق دخلت سيدة وسلمت على أم طارق ثم اقتربت من «يوسف» وأمسكت به، كان يحاول أن يخلص نفسه من بين يديها لكن قبضتها القوية لم تسمح له بذلك.

أدرك «يوسف» في هذه اللحظة أنه سيمر بالمرحلة التالية؛ فبعد أن

أخذته السيدة ودفعت ثمنه لأم طارق جعلته يرتدي «ملابس الشغل»، وهي في الحقيقة لم تكن ملابس إنما هي قطع مهلهلة ممزقة من القماش، يدخل منها الهواء إلى جسده النحيل فيضاعف عليه الألم، ألم النفس وألم الجسد، كانت مهمته التالية هي أن يحمل عدة حقائب بها مناديل وبعض الحلوى ويركب وراء هذه السيدة في المواصلات العامة؛ فهو يسهل عليها مهمتين أولاهما: التسول؛ فمنظره يزيد من تعاطف الناس معها، ثانيتهما: أنه يحمل كل شيء طوال الطريق، وبالتالي فهي لن تتعب في شيء على الإطلاق.

كان «يوسف» يشعر بإحراج شديد؛ فهو ولأول مرة يوضع في موقف كهذا، كانت نظرات الناس تلاحقه، والأصعب من نظرات القرف والاحتقار من البعض، نظرات الشفقة والعطف في عيون البعض الآخر، ظل على هذا الوضع طوال النهار تقريبا، هي تسير وهو يسير وراءها حافي القدمين، واضعا عينيه في الأرض متحاشيا النظر إلى الناس، كان البعض يعطف عليه وأحيانا يعطونه النقود في يده.. ما يزيد من ضيقه وحزنه.

حوالي الساعة التاسعة مساءً أمرته هذه السيدة بأن يجلس على الأرض على جانب الطريق وأن يضع بجواره البضاعة إلى أن تشتري بعض الطعام، وبعد رجوعها جلست لتأكل أمامه دون أن تعيره أي اهتمام وبعد أن فرغت من الأكل قالت له: انت لسه معاك فلوس من اللي الناس ادوهالك؟

رد «يوسف» بصوت منخفض: لا.

السيدة: طب يلا شيل الحاجة دي وتعالى ورايا.

حمل «يوسف» البضاعة، كان يشعر بثقلها أكثر من أي وقت مضى؛ فهو لم يأكل منذ الصباح، مشى ببطء وتثاقل شديد، ما دفعها إلى جذبه من ملابسه إلى الأمام لكي يسرع، وصل الاثنان بعد ذلك إلى المقبرة التي أخذته

منها صباحا ووجد نفس المشهد، الأطفال يجلسون على الأرض، بعضهم ينتظر من يأتي ليصحبه إلى منزله والبعض الآخر يبدل ملابسه ويشق طريقه إلى منزله بمفرده -إن كان له وجود- بدَّل «يوسف» ملابسه ووجد أم طارق هذه تنتظره، فاصطحبته وأعادته إلى المنزل، كانت الساعة قد أصبحت حوالي الثانية عشرة منتصف الليل.

فتحت زوجة عمه الباب، فدخل «يوسف» ليجد الجميع نياما، نظرت له وهي تتثاءب وقالت: يااااااااااااااااااااااه دي الساعة ١٢.. انت اتأخرت أوي، يلا ادخل نام.. ادخل الأوضة من غير صوت عشان العيال ما يصحوش.

تحدثت ثم همت بالدخول إلى غرفتها، لكن استوقفها صوت «يوسف» الضعيف المتعب قائلا: أنا جعان.

- جعان؟ مش عارفة فيه أكل في التلاجة ولا لأ، شوف كده، ولو ما لقيتش نام وابقى كل الصبح.. دخلت «يسرية» بعد ذلك غرفتها وغطت في نوم عميق، أما «يوسف» فقد ظل يبحث في الثلاجة والمطبخ عن طعام إلى أن وجد بعض الخبز والجبن فتناولهما ودخل الغرفة لينام فوجد «ياسين» جالسا على الأريكة ينتظره في الظلام.

- «ياسين».. انت إيه اللي مصحيك لحد دلوقتي؟
- أنا صحيت ما لقيتكش.. خفت أحسن ما تجيش تاني زي بابا.
- ما تخافش.. نام بس علشان الوقت متأخر، أحسن يصحوا.
- طب انت هتخرج تاني بكرة؟
- مش عارف يا «ياسين»، بس ما تخافش، حتى لو خرجت هرجع تاني، مش هسيبك هنا لوحدك.

ساعد «يوسف» أخاه لينام على الأريكة وغطاه جيدا ونام هو في مكانه المعتاد متغطيا بغطاء خفيف لا يحميه من البرد.

في اليوم التالي كان «يوسف» ينوي أن يرفض الخروج، لكنه لم يشعر

سوى بيد زوجة عمه تضربه على وجهه «علشان يبطل دلع»، وهددته بأن تنزل «ياسين» بدلا منه، ما اضطره إلى النزول، كانت الأيام متشابهة: يخرج فجرا، يصل إلى المقبرة وينتظر زبونا، ثم يظل يعمل حتى منتصف الليل ويعود ليأكل ما تبقى من الطعام إن وُجد، ولا يكاد ينام ساعتين حتى يبدأ يومه من جديد، أما الشيء الوحيد المختلف فهو العمل الذي يطلب منه الزبون أن يؤديه؛ فهو غالبا يكون في إطار التسول لكن بطرق مختلفة؛ فمرة يمسح السيارات، وأخرى يبيع المناديل، وثالثة يوزع أوراقا يستعطف بها الناس، مع مرور الوقت وزيادة الفهم أدرك أنه أصبح مجرد سلعة، أداة تتحرك من مكان إلى آخر، ينفذ ما يؤمَر به، يكذب طوال الوقت ليستعطف الناس، شعر بأنه لم يعد كما كان، فقد تغير كل شيء فيه، أصبح أكثر شحوبا، أكثر حزنا، كرامته أُهدرت بحيث لم يعد يشعر بالحرج الذي شعر به أول مرة مع تلك السيدة، حتى رسوماته قد كرهها ولم يستطع أن ينظر إليها فهي قد تذكره بما مضى وتجعله يتمرد على وضعه الحالي وهو لا يريد لنفسه أن تتمرد؛ فهو يريدها ساكنه خاضعة؛ لأنه لا يعرف ما قد يفعله عمه أو زوجته إذا رفض النزول إلى هذا العمل، هل ستضربه كما سبق أن فعلت هي وعمه أكثر من مرة بمجرد أن يبدي تعبه مما يتعرض له يوميا، أم قد تقدم على فعل شيء آخر.. شيء ربما سيتحمله على نفسه وليس على أخيه؟ فهي الآن أكثر طمعا من ذي قبل؛ فقد أدخل عمل «يوسف» لها مالا كثيرا بشكل يومي لن تستغني عنه بسهولة، إنه الآن يبلغ من العمر ٨ سنوات، لكنه يفكر كعجوز عمره ثمانون عاما ولا بد أن يحسب كل خطوة قبل أن يقوم بها.

***

جلس «يوسف» أمام «نور» محرجا مما قد حكاه لها، وحاول تفادي النظر إليها أثناء الحكي، أما هي فكانت تنظر إليه من حين إلى آخر لترى تعبيرات وجهه وهو يحكي.. إنه الوقت الوحيد الذي تشعر فيه بأنه شخص مختلف، أما غير ذلك فهو يبدو كمجرم محترف مستعد لفعل أي شيء لتحقيق مصلحته.

سرحت «نور» قليلا لكنها انتبهت بعد ذلك لصوت «يوسف» يستكمل حديثه: «فضلت راضي بالحال ده كتير، كنت مستني حاجة تحصل تخرجني من اللي كنت فيه، وحصلت حاجة...» صمت «يوسف» فترة وبدا عليه الإحراج والتردد وكأنه لا يستطيع أن يحكي «.. (ياسين) أنا عايزك تسامحني، الحاجة دي هي الوحيدة اللي مش هقدر أحكيها.. بس أنا عايزك تعرف إن اللي حصل جرحني لدرجة خلتني ما أقدرش أكمل، وهي السبب في إننا هربنا من عند عمك بعد كده، خفت عليك، خفت تمر بنفس اللي أنا مريت بيه».

سكتت «نور» فترة، بدا عليها الشوق الشديد لمعرفة الشيء الذي يتحدث عنه «يوسف» وقررت أن تحاول إقناعه لعله يستجيب لها ويحكي:

- انت ليه مش عايز تتكلم؟ مش انت وعدته تعرفه كل حاجة؟

- فيه حاجات الأحسن إن الواحد ما يعرفهاش.

-إيه يعني اللي حصل أكتر من اللي حكيته؟ أكيد مفيش أصعب من اللي مريت بيه.

- في الشارع فيه حاجات كتير صعبة.. أصعب من اللي حكيتهولك بكتير.

-بس...

قاطعها «يوسف» بضيق:

- «انتي عايزة تعرفي كل حاجة لمجرد إنك ترضي فضولك، لكن مش بتحسي بآلام الناس، ولا بتقدري مواقفهم.. انتي على فكرة أنانية، زيك

زي أي حد ما بيفكرش غير في نفسه وبس، ومش هفكرك تاني، طول ما انتي معايا أنا صاحب القرار، أنا اللي بحط القواعد وانتي تمشي عليها، أقول تكتبي تكتبي، اقفي تقفي، غير كده ما تناقشينيش».

كان «يوسف» يتحدث بعصبية شديدة أكثر مما يحتمله الموقف، وكانت «نور» تستمع إلى الكلام بشيء من الصدمة والاستغراب فكل هذه العصبية غير مبررة.. وكلماتها لم تكن تحتمل كل ذلك.

اقترب منها «يوسف» قائلا: يلا علشان تنامي. وقيَّد يديها، وفتح الباب وخرج.

***

جلس «يوسف» أمام الكبينة، كان البحر ممتدا أمامه وضوء ضعيف من الكبينة يصل إليه، فضَّل أن يظل جالسا في الخارج على الرغم من البرد والمطر الشديد، لم يستطع أن يبعد عن تفكيره ما حدث هذا اليوم، فإنه إذا كان قد قرر ألا يحكى لـ«ياسين» ما جرى فهذا لا يعني أنه يستطيع أن يمنع نفسه من التذكر والتفكير في الأمر؛ فقد وجد نفسه أسير ذكريات هذا اليوم مرة أخرى.

***

من ذكريات «يوسف»

أول ما تذكره «يوسف» هو إنجازه لعمله هذا اليوم، وعودته كالعادة إلى المقبرة منتظرا أم طارق لتوصله لمنزله، ظل منتظرا طويلا لكنها لم تأتِ، مرت ساعة والأخرى، وتجاوز الوقت منتصف الليل وانصرف كل الصبية إلا هو، وجد نفسه يجلس وحيدا في هذا المكان المرعب، وشعر بخوف شديد، هل يظل مكانه حتى الصباح؟ لكنه لا يستطيع؛ فهو يخشى أن يظل هنا بمفرده الليل كاملا، إذًا ما الحل الأفضل؟ هل يعود وحده إلى المنزل؟ فكر طويلا واستقر على ضرورة أن يعود إلى المنزل؛ فهو، بالإضافة إلى أنه لن يستطيع النوم في هذا المكان، يخشى من عقاب عمه له إذا تأخر فهو لن يتحمل «علقة» أخرى.

همَّ «يوسف» بالخروج وسار بين المقابر، لم يكن يصاحبه في الطريق سوى الكلاب الضالة، ملأ الخوف قلبه، إنه لم يسبق له أن شعر بخوف مثل هذا مطلقا، بدأ يسرع بخطواته لكي يخرج من هذا المكان، لكن فجأة وجد مجموعة من الأطفال، كانوا يكبرونه بعدة سنوات - أي في حوالي الثالثة عشرة من عمرهم أو أكثر - التفتوا إليه وتضاحكوا وكأنهم قد وجدوا كنزا، اقترب أحدهم من «يوسف» ووقف أمامه.. حاول «يوسف» أن يعبر من جانبه، لكنه كان يتحرك أمامه ويلاحق خطواته والباقون يقفون جانبا يدخنون ويبتسمون.

نظر له «يوسف» قائلا: عايز أعدى.

الطفل: تؤ.. قالها ساخرا وهو يومئ برأسه نافيا.. مش هتعدي.

كان «يوسف» يفكر باستمرار.. ماذا يفعل؟ ولم يدرِ بنفسه إلا وهو يبعد هذا الولد عن طريقه بالقوة، وفي هذه اللحظة تحرك الولدان الآخران وبدآ في الإمساك به وتكتيفه، حاول جاهدا أن يضربهم ليهرب لكنه لم يستطع فهم يفوقونه عددا وقوة، كان يصرخ، إلا أن هذا المكان لا يفيد فيه الصراخ؛ فالموتى قد يسمعون قبل أن يصل صوته لشخص حي في هذه المنطقة.

أمسك به هؤلاء الأولاد وسط صرخاته واستنجاده.. جروه إلى داخل المقبرة ودخلوا به إلى إحدى الغرف، ورموه على الأرض ثم أغلقوا باب الغرفة الخشبي.

رفع «يوسف» وجهه بعد أن وقع على الأرض، وجدهم جميعا يقفون أمام الباب وينظرون إليه، رمى أحدهم السيجارة من يده واقترب من «يوسف» وأخذ يتحسس وجهه ثم ابتعد ولد واقترب آخر منه، وبمجرد أن وضع يده على جسده بدأ «يوسف» في ضربه وإبعاده عنه، كان يصرخ بشكل متواصل فدفعه هذا الولد على الأرض وأخذ يضربه على وجهه مثبتا إياه، لكن «يوسف» واصل إبعاده بيديه، فأخرج الولد مطواة وضربه بها على خده الأيسر، صرخ «يوسف» من الضربة ولم يعد يستطيع المقاومة، لا يتذكر بعد ذلك سوى الاعتداء البشع الذي تعرض له ولا يتردد في أذنه سوى صوت صرخاته المتعالية وبكائه المستمر وتسارع أنفاسه، بعد دقائق تحول بكاؤه إلى أنين؛ فقدْ فقدَ القدرة حتى على البكاء من هول ما يحدث له ولم يعد يسمع سوى صوت أنفاسه ولم تكن عيناه تريان إلا الحشرات تلامس جسده، استمر الأمر حوالي ساعة قبل أن يفرغ منه الأول، وتبدل الآخران عليه.. لم يعد بعد ذلك يدرك الوقت أو المكان، لم يعد يشعر بجسده أو أجسادهم، كان من يفرغ

منهم يجلس ليدخن ويتابع ما يقوم به صاحبه وأحيانا قد يعلق عليه أو يبتسم، شعر «يوسف» بأن كل شيء قد توقف عند هذه اللحظة، حتى حياته قد انتهت، أما الدخان ووجوههم المبتسمة فقد جعلته شبه فاقد للوعي، مر كثير من الوقت، شعر بأنه قد دخل في غيبوبة، لم يكن يرى شيئا لكنه شعر بيدين تجرانه، كان جسده يؤلمه من احتكاكه بالأرض.. خرجوا به من المقبرة وسحبوه بهذا الوضع مسافة طويلة إلى أن وصلوا لمكان مهجور به أكوام من القمامة.. رموه بجانبها وانصرفوا، كان ذلك آخر شيء شعر به «يوسف» قبل أن يفقد وعيه بالكامل ويدخل في غيبوبة تامة.

***

وقت طويل مر على هذه الحادثة، لكن لا شيء من تفاصيلها يمكن أن يُمحى من ذاكرة «يوسف»، تنبه بعد ثوانٍ لما حوله، فوجد أن الشمس قد أوشكت على الشروق، وعلى الرغم من ذلك فالمطر لا يزال ينهمر بقوة، كان يشعر ببرد شديد، ما دفعه إلى الدخول إلى الكبينة مرة أخرى، دخل فوجد «نور» نائمة، بحث عن ملابس في الغرفة ليرتديها بدلا من ملابسه التي أغرقها المطر فلم يجد، وبعد أن يئس من البحث جلس على الأرض تحت الشباك وأخذ ينظر لـ«نور» وهي نائمة، كانت هادئة عكس حالها دائما، وكان هذا الهدوء يزيدها جمالا، شعر بشيء غريب يجذبه إلى الإمساك بالورقة والقلم، وبدأ يرسمها، كان يشعر بسعادة بالغة..

لقد مر وقت طويل منذ أن رسم آخر لوحة، قضى الساعات التالية يرسمها

بدقة، لكن بعد فترة شعر بالتعب يزيد عليه وأن حرارته ارتفعت وكانت ملابسه لا تزال مبتلة، دفعه التعب إلى النوم مكانه على الأرض.. بعدها بفترة استيقظت «نور» فوجدته نائما على غير العادة؛ فهو دائما يصحو قبلها، كان يبدو عليه التعب، شعرت «نور» أن الفرصة قد حانت لها لتهرب من هذا المكان، أخذت تنظر حولها علها تجد وسيلة لفك القيد من حول يديها، لكنها لم تجد، فاستخدمت أسنانها، ظلت تحاول فترة طويلة إلى أن اتسع القيد تدريجيا واستطاعت أن تخرج يدها.. كانت لا تكاد تصدق نفسها في هذه اللحظة.

نهضت من على السرير وحاولت فتح الباب، لكن وجدته مغلقا بالمفتاح، بحثت عنه في كل مكان فلم تجده، فكرت أنه ربما يكون في جيب «يوسف».. اقتربت منه وجلست بركبتيها على الأرض ووضعت يدها في جيب قميصه، لكنها لم تجد شيئا، إنما لاحظت أن ملابسه مبتلة للغاية وجسده مرتفعة حرارته بدرجة كبيرة، أكملت بعد ذلك بحثها إلى أن وجدت المفتاح في جيب سرواله، وقبل أن تنهض لفت انتباهها الورقة التي تحمل رسمتها، كانت وراء ظهره، إنها رسمة رائعة، أمسكتها «نور» ونظرت لـ«يوسف» ثم نهضت وفتحت الباب ثم أغلقته بالمفتاح من الخارج وركبت السيارة وانطلقت.

الفصل التاسع

الهروب

كان والد «نور» يشعر بفرحة بالغة؛ فقد قرأ في «الجورنال» صباحا أنهم قد أمسكوا بالشخص الذي انتحل صفة الخادم وأنه اعترف على شخصية خاطف ابنته والمحافظة التي اختطفها إليها خارج القاهرة، لكنه لم يدلِ بسبب الاختطاف، دفعته هذه الأنباء إلى الاتصال بمأمور القسم للتأكد، وقد أكد له الخبر، لكن المأمور كان مستاء للغاية؛ فقد حاول بكل جهده ألا يتم تسريب هذا الخبر للصحف حتى لا يأخذ المجرم حذره، لكن الآن قد ذهب كل جهده سدى ودفعه ذلك إلى أن يحول الضابط المسئول عن القضية للتحقيق، لكن كل ذلك لم يكن يهم والد «نور» في شيء؛ فالمهم هو أنه قد عرف مكان ابنته، لكنه خشي من رد فعل هذا المجرم بعد أن عرف أن أمره قد انكشف، فقد كُتب في «الجورنال» أنه مجرم هارب من السجن، وليس هذا فقط، إنها قضية قتل حُكم عليه فيها بالإعدام، إذًا ما الذي سيمنعه من قتل ابنته قبل أن يتمكنوا من الوصول إليها؟ ظلت هذه المخاوف تساور والد «نور» لدقائق، وزادها بداخله كلام والدتها وقلقها العميق بعد نشر هذه التفاصيل، فقرر أن يذهب إلى قسم الشرطة ليعرف ما الخطوة التالية.

***

قادت «نور» السيارة بسرعة شديدة، وبعد أن قطعت مسافة كبيرة وجدت أن البنزين قد أوشك على النفاد.. أصابها ذلك بقلق شديد.. ماذا تفعل إذا توقفت بها السيارة في هذه الصحراء القاحلة؟ جاهدت إلى أن وصلت إلى البنزينة التي اصطحبها إليها «يوسف» من قبل وفكرت في أن تظل هناك وتطلب النجدة، لكنها خشيت من أن تجلس طويلا في هذه الصحراء؛ فقد كانت تريد أن تصل بالسيارة إلى أقرب نقطة شرطة وتستقر بها.

اقتربت «نور» بالسيارة من ماكينة البنزين ووجدت بجوارها رزمة من الجرائد، كانت صورة «يوسف» تحتل الصفحة الأولى فأخذت إحدى النسخ ووضعتها داخل السيارة قبل أن يشاهدها العامل، ثم ضربت منبه السيارة بقوة فخرج العامل، وأخذ ينظر إليها باستغراب؛ فهي ما زالت ترتدي فستان الزفاف وكان هذا كفيلا بلفت نظر أي شخص إليها.

ابتسم لها العامل ببلاهة، فردت «نور» الابتسامة بسرعة وقالت له: لو سمحت عايزة أزود بنزين.

- تحت أمرك (كانت نظراته تنم عن إعجاب شديد بها) وكان يبتسم باستمرار، بدأ في وضع البنزين لكن عينيه ظلتا معلقتين عليها طوال الوقت.. استأنف حديثه أثناء ذلك قائلا: هو اللي حضرتك لبساه ده.. فستان فرح؟!

أومأت «نور» برأسها موافقة.. وقبل أن يتحدث هو مرة أخرى بادرت هي بالحديث قائلة: انت تعرف قسم شرطة قريب من هنا؟

- آه، آخر الطريق، بس بعيد شويه، ليه فيه حاجة؟

-لا أبدا بسأل بس، أصل المكان هادي ومقطوع أوي.

استكمل حديثه: ما تخافيش، أنا موجود.

ابتسمت «نور» وأومأت برأسها.

- هو حضرتك بتعدي من هنا كتير، أصلي بشبه على حضرتك.
-انت بتقرا جرايد؟
- لأ.
-يبقى أكيد ما تعرفنيش.
- هو حضرتك بتطلعي في الجرايد يبقى انتي أكيد ممثلة، أنا كنت حاسس بكده من ساعة ما شوفتك والله، طب انتوا بتصوروا ولا إيه؟ فيه كاميرا بس أنا مش شايفها، صح؟ (كان يتحدث وهو يتلفت حوله في كل اتجاه باحثا بالفعل عن الكاميرا).
(كانت «نور» تجاريه في الكلام) : أيوه.. أنا ممثلة.. وحاسب بقى علشان البنزين غرق الأرض.
- آه.. أوقف عمله.. هههههههههه.
-هيييييه (ابتسمت بضيق).
حسابك كام؟ كانت تتحدث وهي لا تدري من أين ستدفع له.
- لا خلي.. ما يصحش.
وكأنها كانت تنتظر أن تسمع هذه الكلمة فابتسمت له ابتسامة عريضة، وكأنها تغريه.. ماشي، شكرا، انت لذيذ أوي على فكرة، أنا بعدي من الطريق ده كتير، هاشوفك تاني بقى.
رد العامل وكأن ابتسامتها قد أنسته النقود: آه طبعا..
-باي باي.
- بااااااااااااااي..
انطلقت«نور»بالسيارة لكنها كانت تسمع صوته مازال يخاطبها: هستناكي بقى.

***

سارت «نور» بالسيارة حتى ابتعدت عن البنزينة ثم توقفت لتقرأ «الجورنال»، كان العنوان كالتالي: «كشف لغز اختطاف ابنة رجل الأعمال المعروف»، جذبها العنوان، خاصة أن صورة «يوسف» بالفعل كانت منشورة بجانب الخبر.

بدأت «نور» في قراءة التفاصيل، كان اسم «يوسف» مكتوبا كاملا وأنه قد هرب من السجن قبل زفافها بيوم بعد أن حُكم عليه بالإعدام لقتل عمه، وأكد الخبر أن «يوسف» مسجل خطر وأنه مساعد لتاجر مخدرات معروف لدى أجهزة الأمن، أما سبب قتله لعمه فهو السرقة.

وعن مكانها فمكتوب في «الجورنال» أنه محافظة سيناء، لكن دون تحديد أكثر من ذلك، جلست «نور» بعد قراءتها لهذه التفاصيل فترة، كان يبدو عليها الوجوم؛ فقد تعاطفت مع «يوسف» كثيرا ولم تكن تتوقع أن يكون شخصا سيئا إلى هذه الدرجة، بعد فترة انطلقت بالسيارة مرة أخرى، أثناء الطريق ظلت تفكر فيما حكاه لها «يوسف» عن نفسه، أشعرها ذلك طوال الوقت بأنه ضحية، كما أنه لم يؤذها طوال فترة اختطافه لها، شعرت بالذنب، فلم يكن يصح أن تتركه في هذه الحالة، ماذا لو حدث له مكروه؟ إنه مريض جدا، كانت الورقة التي رسمها عليها موضوعة أمامها على التابلوه، نظرت إليها ثم أوقفت السيارة فجأة واستدارت وقد عقدت عزمها على العودة.

***

ارتسمت على وجه عامل البنزينة الابتسامة المعتادة بمجرد أن رأى «نور» وقد عادت مرة أخرى، أما هي فقد كانت ترى أنه الوحيد الذي من الممكن أن يمدها بما تحتاجه.

- جيتي بسرعة.. أنا وحشتك ولا إيه؟

ابتسمت «نور»: بقولك إيه، ما عندكش دوا للبرد؟

- مش عارف، اتفضلي معايا جوه في المخزن أشوفلك.

شعرت «نور» بالخوف، لكنها لم يكن أمامها حل آخر؛ فهي متأكدة من أن «يوسف» يحتاج إلى علاج قوي وبسرعة.

سارت «نور» وراءه إلى أن وصلا لغرفة ضيقة وبها دولاب صغير، أخذ العامل يبحث في هذا الدولاب ويستغل الظروف من حين لآخر ويقترب منها.

أمسك بعد ذلك بعلبة من الدواء ثم قال: أهه.. دي للسخونية، وده مضاد حيوي.

همت «نور» للإمساك بالدواء لكنه كان يبعد يده في كل اتجاه، إلى أن أمسكته منه ثم خرجت.

وخرج هو وراءها وأخذ يقترب منها قائلا: عايزة حاجة تاني؟

-لأ شكرا.

حاولت الخروج لكنه كان يقف أمامها ويحاول الاقتراب منها مغازلا إياها: انتي حلوة أوي، ما تستني هنا شويّه، انتي مستعجلة ليه؟

شعرت «نور» بخوف شديد ولم ينقذها من هذا الموقف سوى صوت منبه سيارة أخرى توقفت للحصول على البنزين واقترب صاحبها منهما، حينها استغلت «نور» الفرصة وخرجت من هذا المكان بسرعة وهي متأكدة أنها لن ترجع إليه ثانية.

وصلت إلى الكبينة لتجد «يوسف» نائما على السرير مغمض العينين، لكنه انتبه على صوت غلقها الباب، ففتح عينيه وانتظر حتى اقتربت منه ثم قال: رجعتي ليه؟

نظرت له لثوانٍ ثم قالت: رجعت عشان دي - كانت تمسك برسمتها التي رسمها «يوسف» في يدها.

شعر «يوسف» بالإحراج وأزاح برأسه بعيدا وقال: أنا كنت بتسلى، ما كنتش لاقي حاجة أعملها.

نظرت له «نور» وبدا عليها عدم الاقتناع بكلامه: على العموم أنا ما رجعتش عشان كده وبس.. انت تعبان ولو جرالك حاجة هحس بالذنب.. وبعدين الجواب لسه ما كملش وانت محتاجلي علشان أكمله.

كانت تتحدث وهي تبحث في الغرفة عن شيء ما إلى أن رآها «يوسف» تمسك بالحبل الذي كان يكتفها به، اقتربت منه وربطت يديه أعلى السرير.

- انتي بتعملي إيه؟

-زي ما انت شايف، بكتفك.

- وبعدين؟

جلست «نور» بجانبه على السرير ثم قالت بتحدٍّ: ا

- نت اللي هتعمل كل اللي أقول عليه، دلوقتي قواعدي أنا اللي هتتنفذ.

وضعت يديها على جبينه فوجدت حرارته مرتفعة للغاية، أعطته الدواء، ثم قامت بعمل كمادات له حتى شعر بشيء من الراحة وتمكن من النوم، غطته «نور» جيدا وجلست بجانبه إلى أن انخفضت حرارته، وبعد فترة شعرت بنعاس شديد، نامت على الأرض في المكان الذي اعتاد «يوسف» أن ينام عليه، لكن نهضت مفزوعة بمجرد أن رأت صرصورا كبيرا يمشي بجانبها، بعدها ظلت جالسة بجانب «يوسف»، وعندما غلبها النعاس

نامت على السرير بجانبه، فقد كان «يوسف» ينام على طرف السرير، لم تخف؛ فهي متأكدة أن «يوسف» ليس بمقدوره أن يفعل لها شيئا وهو بهذه الحالة.

***

بعد قليل فتح «يوسف» عينيه ليجد «نور» مستلقية بجانبه، كان جسدها يكاد يلامس جسده، توتر كثيرا وابتعد عنها، حينها أحست «نور» بحركته فاستيقظت هي الأخرى واعتدلت بجلستها على السرير، ووضعت يدها على جبينه ثم قالت: انت بقيت أحسن، السخونية راحت شويّه.

- طب فكي إيدي بقى.

نظرت له «نور» ثم عبرت من فوق قدميه وذهبت لتحضر «الجورنال» ووضعته أمامه وقد فتحت الصفحة المنشور بها الخبر عنه: مش قبل ما تقولي الأول إيه حكايتك.

بدا على «يوسف» الفزع بمجرد أن رأى صورته في «الجورنال»: يا نهار اسود، هما كاتبين إيه؟

نظرت له «نور» لثانية ثم وضعت «الجورنال» جانبا وقالت له: انت صحيح قتلت عمك؟

في هذه اللحظة أدرك «يوسف» أن «الجورنال» قد كُتب فيه الكثير عنه، نظر لها ثم قال: هما كاتبين كده؟

-آه.. كاتبين إنك قتلته وسرقته، وكاتبين كمان إنك تاجر مخدرات، يعني لا انت ضحية ولا مظلوم زي ما بتحكي لأخوك في الجواب.. وبعدين فين أخوك ده؟ أنا حاسة إن ده وهم من اختراعك.. قول لي انت جبتني هنا ليه؟ (كانت تتحدث بعصبية شديدة؛ فهي تشعر أن «يوسف» قد خدعها بحكايته طوال الفترة الماضية).

صمت «يوسف» برهة ثم قال: كل اللي كاتبينه صح، أنا قتلته بس مش علشان أسرقه، علشان أحمي أخويا اللي بتقولي إني اخترعته.

-قتلته؟ يعني اللي مكتوب صح؟ يعني أنا قاعدة مع مجرم زيك بقالي أسبوع وكمان من غبائي رجعت علشان أعالجه؟

- أنا مش مجرم.. قولتلك أنا كنت بحمي أخويا وهو ده اللي أنا عايز

أوصله لـ«ياسين»، عايز أعرفه الحقيقة، عايز أعرفه أنا ليه قتلت عمه وليه اشتغلت في المخدرات، وفي حاجات تانية كتير الجرايد مش بتكتبها.

-هو فيه مبرر إنك تقتل وتبيع مخدرات؟

بدا على «يوسف» الوجوم وكأنه لا يستطيع أن يجيب عن سؤال «نور».. سادت بعد ذلك فترة صمت قطعها «يوسف» قائلا: أنا عارف إني عملت حاجات كتير غلط، بس معظمها كان غصب عني.. صدقيني أنا كل حاجة حكيتهالك كانت صح، أنا محكوم عليَّ بالإعدام، يعني مجرد ما يمسكوني مش هيبقى قدامي كتير علشان أفهم «ياسين» الحقيقة، أنا مش عايز أموت وصورتي متشوهة قدامه، نفسي يفتكر دايما أخوه بتاع زمان ويعرف اللي كان عمه ومراته بيعملوه فيه..

لو مش مصدقاني مش مهم، أنا ما بقاش يفرق معايا الجواب ده، أكيد هو ما بقاش عايز يسمع حاجة عني.

أثرت كلماته في «نور» بشكل كبير فنظرت له وهي تحاول أن تداري هذا التعاطف حتى لا يستغله هو وقالت: على العموم ما تفكرش في حاجة دلوقتي، انت تعبان، ارتاح وبعد كده نكمل.

***

كان «حازم» ووالد «نور» يقفان مع الضابط المسئول عن القضية، أخذ يؤكد لهما أن مكان «نور» قد أصبح معروفا؛ فقد تم تطويق محافظة شمال سيناء بالكامل، وهناك معلومات أنها موجودة في منطقة مقطوعة بالصحراء قرب الطريق السريع وأن قوات من الشرطة متجهة إلى هذا المكان الآن لتفتشه بالكامل.

أسعدت هذه المعلومات والدها وخطيبها كثيرا وقرر الاثنان السفر بالطائرة فورا إلى هناك لمتابعة كل ما يجري عن قرب.

***

اقتربت «نور» من «يوسف» وفكت القيد من يديه قائلة: نام شويّه ولما تصحى لازم تمشي من هنا.

- «لو عايزة تمشي اتفضلي، انتي مش محبوسة، العربية بره والمفاتيح قدامك».. رد «يوسف» بعدم اكتراث.

-انت كمان لازم تمشي من هنا قبل ما البوليس يوصل لنا (كانت تتحدث وكأن الموضوع غير ذي أهمية).

- ليه؟ هو مكتوب في «الجورنال» إنهم عرفوا طريقنا؟

-آه.

- وما قولتيش ليه من ساعة ما جيتي؟

-يا سلام؟ وكنت أحذرك ليه وأنا عارفة إنك قاتل؟

- انتي مجنونة؟ انتي عارفة إن البوليس قرب يوصل لنا وقاعدة تعالجي فيَّ وتستجوبيني كل ده؟

-على فكرة أنا غلطانة إني رجعت وحاولت أنقذك، كان زمانك مت ولّا البوليس قبض عليك.. أنا دايما كده طيبتي مودياني في داهية، بكرة ترجع تكتفني وتقرفني تاني، بس عندك حق في كل اللي هتعمله، ما أنا اللي رجعت وعملت كده في نفسي.

- بس.. بس اسكتي.

(كانت تتحدث و«يوسف» ينظر من الشباك ليرى ما إذا كان أحد في الخارج).

استدار «يوسف» ليتحدث معها: انتي حد شافك لما هربتي؟

«نور» - تحدثت بخوف -: امممم.. آه، عامل البنزينة اللي على أول الطريق، وواحد زبون دخل يشتري حاجات.. بس كده.

«يوسف» - تحدث ساخرا -: بس كده؟ فعلا بسيطة.

بدأ «يوسف» يضع حاجاته في حقيبة ويجمع كل متعلقاته ومتعلقات

«نور» من الغرفة.
- يلا.
-هنروح فين؟
- مش عارف.. المهم بعيد عن هنا، زمان البوليس قريب من المكان.
فتح «يوسف» الباب وخرجت «نور» وراءه ثم أغلقا الغرفة، وبمجرد خروجهما وجدا ضوء سيارات الشرطة يتضح بعيدا في الأفق، أسرع «يوسف» في تشغيل السيارة لكنها لم تكن تسير؛ فـ«نور» قد أوقفتها فوق أرض رملية كثيفة، ظل يحاول فترة وسيارات الشرطة تقترب منه أكثر فأكثر إلى أن اتضحت أمامه وأصبحت الشرطة ترى سيارتهما بسهولة.. حينها عرف «يوسف» أن هروبهما لن يكون بلا عواقب.. استمر في تشغيل السيارة لكنها لم تدُر، حينها أمر «نور» بأن تمسك بمقود السيارة ونزل هو من السيارة وأخذ يدفعها من الخلف، كان يستمر في الدفع وصوت صافرات الشرطة وأوامرها بأن يثبت مكانه متتالية، لكنهم لم يطلقوا النيران لأنهم شاهدوا «نور» داخل السيارة، وأي إطلاق نار قد يصيبها، وأخيرا خرجت السيارة من الرمل ودار المحرك، وعندما اقترب «يوسف» من الباب ليصعد بدأ إطلاق النار عليه؛ فقد أصبح هدفا سهلا بالنسبة لهم، أما «نور» فكانت تقود السيارة ببطء حتى صعد إليها «يوسف».
كان أحد الضباط قريبا بما يكفي ليرى «نور» وهي تقود السيارة، وبدا المشهد غريبا بالنسبة له؛ فهي ليست مخطوفة إذًا أم أنه هددها بشيء ما؟! توقف ضرب الرصاص بعد أن ركب «يوسف» السيارة خشية من أن تصاب «نور» وانطلق «يوسف» بالسيارة إلى الطريق السريع وسيارات الشرطة تلاحقه.
سرعة فائقة تلك التي سار بها «يوسف» لكي يهرب منهم دفعت «نور» إلى الصراخ باستمرار، حتى إنها أغمضت عينيها ونزلت أسفل الكرسي،

خاصة بعد أن بدأ إطلاق النار يتوالى مرة أخرى.

اخترقت إحدى الرصاصات عجلة خلفية فاختل توازن السيارة وأخذت تتأرجح يمينا ويسارا وخرجت عن الطريق إلى مكان مظلم مليء بالأشجار، ولم تتوقف السيارة إلا عندما ارتطمت بإحدى هذه الأشجار بقوة.

***

ملأ الدخان المنبعث من السيارة المكان بالكامل، ففتح «يوسف» الباب بصعوبة وخرج منها، كان يشعر بدوار شديد جعله يقع على الأرض، استند ووقف بصعوبة ثم ذهب ليخرج «نور» فقد كان بابها عالقا ولا تستطيع الخروج بمفردها، التف «يوسف» حول السيارة وأخذ يحاول مسرعا، فتح بابها قبل أن تلحق بهما الشرطة.

خرجت «نور» من السيارة في حالة بائسة، فقد كانت تسعل بشدة من الدخان وجُرحت في رأسها، لكنه كان جرحا بسيطا، ساعدها «يوسف» على الجلوس جانبا وأخرج حقيبته من السيارة وأمسك بيدها قائلا: انتي كويسة؟

أومأت «نور» برأسها نفيا؛ فقد كان السعال يمنعها من الرد.

- كويس، يلا بسرعة.

جذبها من يدها وأخذا يجريان داخل هذا المكان الشبيه بالغابة.

بدأ صوت الشرطة وأضواء سياراتها تملأ المكان وتحيل ظلامه ظهرا، لكن «يوسف» و«نور» كانا قد ابتعدا بما يكفي، بعد فترة لم تستطع «نور» الجري أكثر من ذلك، فجلست على الأرض وقالت: مش قادرة.

- معلش حاولي.

-مش قادرة، خلاص (كانت قدم «نور» قد جُرحت عندما اصطدمت السيارة بالشجرة، وهذا جعلها لا تستطيع المشي أكثر من ذلك).

علق «يوسف» ذراعي الحقيبة على ظهره ثم اقترب من «نور» ليحملها، لكن قاطعته «نور»: إيه؟ هتعمل إيه؟

- هشيلك؟

-لا طبعا، أنا همشي لوحدي. حاولت «نور» القيام والسير، لكنها لم تستطع فاستندت على «يوسف» وقد كادت تسقط على الأرض، حينها ومن دون استئذان حملها «يوسف» بين ذراعيه وانطلقا إلى مكان لا

يعرفه أي منهما.

***

كاد اليأس يتسرب إلى نفس «يوسف» خوفا من ألا تكون لهذه الغابة نهاية، لكن ظهر في الأفق البحر بأمواجه العالية، كان الفجر قد أوشك على الظهور و«نور» قد نامت على ذراعي «يوسف» من التعب، سار «يوسف» إلى أن اقترب من الشاطئ ووضع «نور» على الأرض ووضع الحقيبة تحت رأسها واستراح قليلا بعد ما مر به طوال اليوم من مفاجآت وأحداث منهكة.

كان ينظر إلى البحر مسترخيا إلى أن شاهد مركبا صغيرا يقترب رويدا من الشاطئ على بعد أمتار منهما.. حينها طرأت على رأس «يوسف» فكرة، فنهض من جانب «نور» ليرى إن كان بإمكانه تنفيذها.

الفصل العاشر

الفراق الأخير

فتحت «نور» عينيها لتجد البحر أمامها و«يوسف» ليس له أي أثر على الإطلاق، شعرت بالخوف وقامت من مكانها لتبحث عنه، لكنها وجدته قادما من بعيد وبجانبه رجل يرتدي ملابس البدو، اقترب «يوسف» من «نور» وقال لها: تعالي معايا.

-فين؟

أمسك «يوسف» بيدها وجذبها قائلا: مش وقته تعالي (كان يتحدث بصوت منخفض حتى لا يسمعهما الرجل).

سار الثلاثة معا إلى أن وصلا إلى القارب الصغير الذي شاهده «يوسف» في البداية، حينها شكر «يوسف» الرجل وأعطاه قدرا من المال كان موجودا في حقيبته، ثم انصرف، لكن استوقفه «يوسف» قبل أن يبتعد قائلا: زي ما اتفقنا، كل يوم الساعة ١٠.

الرجل: إن شاء الله.

انصرف الرجل واقترب «يوسف» من القارب مشيرا بيده إلى «نور»: يلا.

-يلا إيه؟

- اركبي.

-ليه؟ قررت نسافر إيطاليا؟

- لأ للأسف مفيش وقت.. كان يتحدث ساخرا، إحنا هنروح الجزيرة اللي هناك دي (كان يشير إلى جزيرة صغيرة موجودة بوسط البحر، بعيدة بمسافة ليست بالكثير عن الشاطئ).. استأنف «يوسف» حديثه: يلا اركبي الصياد عنده بيت هناك هنقعد فيه.

ابتعدت «نور» عن القارب ثم قالت:

- لأ، إحنا لو ركبنا البتاع الصغير ده (كانت تشير إلى القارب) هنغرق، بص إحنا ممكن نستخبى ورا الصخرة دي ونقعد نكتب الجواب وما حدش هيشوفنا.

اقترب «يوسف» منها وحملها بقوة ثم قال: لما تغرقي أنا هبقى أنقذك، مفيش وقت للدلع بتاعك ده.
ضربته «نور» بيدها: آه، نزلني، بقولك نزلني.
وضعها «يوسف» في القارب وأشار إليها بيديه بأن تصمت ثم ركب القارب وبدأ في الإبحار به.

***

أخذ «يوسف» يجدف مبتعدا عن الشاطئ، وكانت «نور» تشعر بخوف شديد، نظر إليها ثم قال: حاولي تفكري في حاجة تانية علشان تنسي الخوف.
-زي إننا هنغرق هنا وسمك القرش هياكلنا.
- يعني، أي حاجة تهدي الأعصاب زي كده.
أومأت «نور» برأسها ساخرة وسادت فترة صمت ثم توجهت إلى «يوسف» سائلة: هو فين أخوك؟ قصدي ليه بعدتوا عن بعض؟
نظر لها «يوسف» بحزن ثم قال: الظروف، بعد ما هربنا من عند عمي، كل واحد راح في طريق.
-ليه؟ إيه اللي حصل؟
نظر «يوسف» ناحية البحر ثم بدأ في تذكر ما حدث بعد حادثة الاعتداء البشعة التي تعرض لها.

من ذكريات «يوسف»

فتح «يوسف» عينيه ليجد نفسه راقدا على سرير متهالك في مستشفى لا يعرفه، كان العنبر الموجود به يحتوي على أكثر من عشرين سريرا معظمها مليء بالمرضى، وجد يده اليمنى قد تم تجبيسها وهناك بلاستر عريض ملصق على خده الأيسر، شعر بالخوف، لكنه لم يقوَ على القيام من مكانه ليسأل أين هو، ولم يكن يستطيع الكلام أيضا فقد بُح صوته من فرط البكاء والصراخ، بعد قليل جاءت ممرضة كبيرة في السن وسمينة للغاية، جلست إلى جانب «يوسف» على طرف السرير حتى شعر أن السرير سينهار، وضعت الترمومتر في فمه دون أن تحدثه إطلاقا ثم أخرجته وقالت: انت بقيت أحسن، نام بقى لحد ما أهلك ييجوا ياخدوك. قامت من على السرير وبدأت تبتعد، لكن تحدث «يوسف» إليها - كان صوته لا يكاد يُسمع -: أنا جيت هنا إزاي؟

الممرضة: واحد زبال جابك الفجر، لو كان اتأخر شويّه كنت مت، احمد ربنا.

خرجت الممرضة بعد ذلك، وبعد مرور فترة دخل عمه وزوجته إلى العنبر الموجود به، يتبعهما أحد الأطباء، كانا يتحدثان إلى الطبيب ثم ينظران إلى «يوسف» من حين لآخر، أصاب ذلك «يوسف» بتوتر شديد؛ فهو لا يريد لأحد أن يعرف ما حدث له، إن ذلك سيزيد من الجرح والألم العميق الذي يشعر به الآن.

فرغ الاثنان من الحديث إلى الطبيب ثم اقتربا من «يوسف»، جلست زوجة عمه على طرف السرير ووضعت يدها على رأسه قائلة:

- إيه اللي حصل؟ مين شلفطك كده؟ وبعدين دوختنا، إحنا سألنا عليك في كل مستشفيات الحي لحد ما لقيناك هنا (كان هذا الأسلوب الساخر والابتسامة الصفراء المرسومة على وجهها يجعلان تعب «يوسف» يتضاعف؛ فهي حتى في هذا الموقف تعامله بقسوتها المعتادة).
قاطعها عمه قائلا: «يسرية»، قومي هاتيلي كوباية شاي من الكافيتريا.. يلا بسرعة.
- طيب يا اخويا ما تشخطش كده.
غادرت «يسرية» المكان وجلس عمه مكانها وسأل «يوسف» بخشونة: هو إيه اللي حصل؟
صمت «يوسف» وخفض رأسه ثم قال بعد ثوانٍ: فيه ناس ضربوني.
عمه: بس كده؟ نظر إليه عمه وهو غير مقتنع بحديثه.
أومأ «يوسف» برأسه إيجابا ثم سكت، كان يعرف أن الدكتور قد أخبر عمه بمزيد من التفاصيل، لكنه لا يستطيع أن يتحدث أكثر من ذلك؛ فعلى الرغم من أنه يحتاج إلى شخص يشاركه همه وجرحه فإن هذا الشخص غير موجود، في هذه اللحظة تذكر أباه، إذا كان موجودا لأخذ له حقه المهدر وساعده على اجتياز هذا الشعور البشع بامتهان الكرامة، لكن هذه كلها أمنيات؛ فالحقيقة هي ما يعيشه الآن فقد حدث ما حدث ولا يوجد أي إنسان ليقف بجانبه.
مر على وجود «يوسف» في المستشفى يومان، بعدها اصطحبه عمه إلى المنزل وكانت رؤيته لـ«ياسين» قد خففت عنه بعضا من ألمه، احتضنه «ياسين» بمجرد أن رآه واشتكى له من أن عمه وزوجته كانا يرفضان أن يصطحباه معهما طوال اليومين الماضيين إلى المستشفى لتوفير ثمن التذكرة والمواصلات، كان «ياسين» قد بدأ يكبر ويفهم ما يدور حوله، وبدا مدركا لما يشعر به أخوه من ألم وضيق متواصل؛ فقد فات أسبوع على مجيئه

من المستشفى وعلى الرغم من ذلك لا يزال صامتا، شاحبا، يغمض عينيه لكنه لا ينام كأنه لا يريد أن يرى من حوله، كان «ياسين» يعرف ذلك ويشعر بانكسار أخيه، لكنه لا يعرف السبب، أما معاملة زوجة عمه له فلم تتغير، بل زادت سوءا؛ فـ«يوسف» لا يستطيع أن يذهب إلى العمل ولا يريد ذلك بعد ما حدث، فهو لن يهين نفسه بعد الآن، أما هي فقد ظلت تبحث عن حلول، وفي نهاية الأسبوع دخلت غرفتهم قبل أن يناموا وقالت لـ«ياسين»: «ياسين»، عايزاك تجهز نفسك بكرة علشان تنزل الشغل بدل أخوك.

نظر «يوسف» لها بغضب وبادلته هي النظرات؛ فهي تريده أن يسمع هذا الكلام علّه يخاف على أخيه كالمعتاد وينزل هو بدلا منه.

رد «ياسين»: حاضر.

غادرت الغرفة ونام الجميع، وبعد منتصف الليل استند «يوسف» وقام من على فراشه متعبا، اقترب من «ياسين» وتحدث إليه هامسا: «ياسين» اصحى.. اصحى.

فتح «ياسين» عينيه ونظر إلى أخيه ناعسا: فيه إيه؟

- قوم من غير صوت ويلا بينا.
- هنروح فين؟
- يلا بس ولما ننزل هتعرف.

ساعد «ياسين» أخاه على ارتداء ملابسه، خاصة أن يده كانت لا تزال في الجبس، ثم فتح الاثنان الباب بهدوء وخرجا.

ظلا يسيران بعيدا بسرعة وعندما بزغ الفجر كان الاثنان بعيدين تماما عن هذا المنزل الكئيب.. فقد خرجا منه دون رجعة.

***

ظل «يوسف» وأخوه يسيران في الشوارع إلى أن بدأ الليل يحل، كان «ياسين» قد بدأ يتعب من المشي واشتكى لأخيه أكثر من مرة فقال له «يوسف»: معلش يا «ياسين» حاول تمشي شويّه.. دلوقتي نلاقي مكان نقعد فيه.

سار «ياسين» لكن بعد فترة وقف وقال لأخيه: «يوسف» أنا جعان.. ومش قادر أمشي.

- طب تعالى نقعد هنا شويّه وبعد كده ندور على أكل.

جلس الاثنان على الرصيف ومر عليهما بعض الوقت وعندما شعرا بالنعاس دخلا إلى مدخل إحدى العمارات وناما فيه حتى الصباح، وما إن رآهما البواب حتى طردهما من العمارة، عادا إلى السير في الشوارع مرة أخرى، لكن التعب والإرهاق ازدادا عليهما، وتكررت شكوى أخيه من الجوع والتعب فبدأ «يوسف» يفكر في حل ولم يجد أمامه سوى أن يحاول سرقة بعض الطعام لهما، فاقترب من محل بقالة وحاول أن يأخذ بعض أكياس الشيبسي، لكن شاهده صاحب المحل وأمسك به وأوشك على ضربه لولا تدخل رجل من الموجودين بالمحل وتخليصه من يده.

كان هذا الرجل هو المرحلة التالية في حياة «يوسف» فيما بعد، اسمه صلاح عبد المجيد، محامٍ، خط المشيب شعره على الرغم من أنه لا يزال في الأربعينات من العمر، يئس من عمل المحاماة بعد أن رآها وسيلة للدفاع فقط عن المجرمين، أما أصحاب الحق فغالبا ما يُظلمون، دفعه ذلك إلى إنشاء جمعية خيرية لأطفال الشوارع للقيام بالدور الذي لم يستطع أن يقوم به في مهنته وهو الدفاع عن المظلومين، هذه المعلومات كلها عرفها «يوسف» فيما بعد؛ فقد اشترى «صلاح» الطعام لهما وأجلسهما في سيارته وذهب بهما إلى الجمعية الخاصة به، قضى «ياسين» الطريق في خوف؛ فجسد «صلاح» وطوله وعرضه الضخمان تثير في نفس أي طفل

الخوف، إلا أن ملامحه تنم عن طيبة واضحة وتمكنك من معرفة شخصيته منذ الوهلة الأولى.. قضى الطفلان حوالي ساعتين في الطريق أكلا خلالهما الطعام، وبمجرد أن وصلوا سلمهما «صلاح» إلى إحدى المشرفات التي أخذتهما بعد ذلك للحمام ليغتسلا، أثناء ذلك أزال «يوسف» البلاستر من على وجهه وشاهد لأول مرة الجرح الغائر الذي يشوهه، ومنذ ذلك الوقت وهو لا ينظر إلى المرآة مطلقا، ليس ضيقا من منظره لكن حتى لا يتذكر ما حدث.

أعطت المشرفة للطفلين بعد أن اغتسلا ملابس نظيفة ليرتدياها، ثم دخلا غرفة بها ٤ أسرة ينام على اثنين منها طفلان آخران، نام «يوسف» وأخوه بجانب بعضهما على سرير واحد إلى أن جاء الصباح وطلب «صلاح» من المشرفة أن تأتي بـ«يوسف» ليقابله، وبالفعل جلس صلاح مع «يوسف» باعتباره الأخ الأكبر.

شعر «يوسف» براحة كبيرة في التعامل معه؛ فلأول مرة يعامله أحد بطيبة كما كان يعامله أبوه، حكى قصته كاملة لـ«صلاح» بما فيها الحادثة التي لم يستطع أن يحكيها لعمه وأصبح هو الوحيد الذي يعرف ما تعرض له.

مرت الأيام داخل الجمعية، كان الحال أفضل من الوجود في الشارع بالطبع، لكن طالما كان ما يؤرق «يوسف» هو أخاه؛ فهو يريده أن يدخل المدرسة وأن يتعلم، حتى لا يلقى نفس مصيره؛ فـ«ياسين» الآن في الثامنة من عمره ولا يعرف القراءة والكتابة، والجمعية لا تستطيع أن تتحمل تكاليف تعليم الموجودين فيها، صارح «يوسف» «صلاح» بقلقه على أخيه، خاصة أنهما لا يمكنهما البقاء في الجمعية بعد سن السادسة عشرة، وبالتالي فمصيرهما إلى الشارع مرة أخرى.. حينها وعد «صلاح» «يوسف» بأنه سيبحث عن حل، وجاء هذا الحل سريعا؛ فقد استدعاه في يوم

وأبلغه بأن اثنين من معارفه يرغبان في تبني طفل..

كان هذا الحل يفرض على «يوسف» موقفا صعبا وهو أن يبتعد عن أخيه، وهذا شيء يبدو مستحيلا بالنسبة للاثنين؛ فقد فارقا كل من عز عليهما في الحياة ولم يبقَ سواهما بجانب بعضهما البعض، إن «يوسف» بالنسبة لأخيه الآن هو أبوه وأمه وأخوه وصديقه وكل شيء في الحياة، و«يوسف» أيضا يعتبر «ياسين» الشيء الوحيد الذي يبقيه حيا محتملا ما يواجه من صعوبات، فكيف يفكر في التخلي عنه إذًا؟

أمهله «صلاح» فرصة ليفكر في الأمر، وقضى «يوسف» أياما لا ينام بسبب هذا الموضوع، وبعد فترة وافق على الفكرة؛ فقد رأى أن تحمُّل مزيد من الآلام وضمان مستقبل أخيه أفضل من أن يظلا معا ويضيعا في الشارع.

وبالفعل حدد «صلاح» موعدا لهذين الزوجين ليتعرفا على «ياسين» لكن من بعيد، كما طلب «يوسف»؛ حتى لا يشعر أخوه بشيء؛ فهو يريد أن يكون أول من يخبره بذلك حتى لا يتسبب في أي ضيق أو حزن لأخيه.

وبمجرد موافقة «يوسف» حضر الزوجان وتم الأمر بنجاح؛ فقد شاهدا «ياسين» من بعيد وتعرفا عليه كما يتعرف عليهم أي زائر للجمعية وانصرفا بعد أن أخبرا «صلاح» بموافقتهما على تبني هذا الطفل ولم يبقَ سوى أن يعرف «ياسين» بالأمر.

***

ليلا، وبعد أن نام الجميع وأوشك «ياسين» هو الآخر على النوم، أيقظه صوت أخيه قائلا: «ياسين»، انت صاحي؟

كان الاثنان ينامان بجوار بعضهما البعض كالمعتاد.

رد «ياسين»: آه.

- طب أنا عايز أكلمك في موضوع.

استدار «ياسين» ونظر إلى أخيه بقلق: فيه إيه يا «يوسف»؟ حصل حاجة؟

- لأ مفيش حاجة.. بس أنا عايز أسألك سؤال.

صمت «ياسين» منتظرا أن يستكمل أخوه حديثه؛ فهو غير مطمئن لهذا الحوار.

استأنف «يوسف» حديثه قائلا: انت لسه فاكر بابا كان عايزك تطلع إيه؟

استمر «ياسين» في صمته وبدا عليه الحزن والضيق.

- رد يا «ياسين».. فاكر؟

- آه يا «يوسف»، كان نفسه أطلع مهندس وانت تطلع رسام، بس لا أنا ولا انت دخلنا المدرسة.. علشان هو سابنا.

- بابا ما سابناش بمزاجه يا «ياسين»، وبعدين أنا لقيت طريقة علشان تدخل المدرسة.

- إزاي؟

- عارف الراجل والست اللي جم النهارده وسلموا عليك، قبل ما يمشوا طلبوا من «صلاح» إنك تروح تعيش عندهم و...

- انت عايز تسيبني انت كمان؟

بدا على «ياسين» الصدمة وأوشك على البكاء.

- لأ.. لأ يا «ياسين»، أنا مش عايز أسيبك ولا حاجة.

اعتدل «يوسف» في جلسته وأخذ يمسح على رأس أخيه برفق: أنا عايز مصلحتك يا «ياسين»، انت عارف.. دول هيدخلوك المدرسة وهيجيبولك

لعب وحاجات كتير.. وبعدين دول ساكنين في فيلا كبيرة أوي «صلاح» وراني صورتها.

كانت كلمات «يوسف» تجعل بكاء «ياسين» يزداد، جلس «يوسف» صامتا عاجزا عن تهدئة أخيه، ونظر له فترة ثم قال: «ياسين» انت عارف إن كل اللي يهمني مصلحتك، أنا عايز أطمن عليك.

- انت عايز تخلص مني زي ما عمل بابا وماما.. مفيش حد بيحبني.

- لأ ما تقولش كده، أنا بحبك، وبعمل كده علشان بحبك، بكرة تتأكد من كده.

حاول «يوسف» الاقتراب من أخيه إلا أنه أبعده بيده واستدار معطيا له ظهره.. لم ينَم الاثنان في هذا اليوم؛ فقد كان هذا الحديث كافيا لإيقاظهما طوال الليل، ولم يتحدث «ياسين» إلى أخيه طوال اليومين التاليين، ما أصاب «يوسف» بحزن شديد؛ فهو لا يطيق أن يعامله أخوه بهذه الطريقة؛ لذلك فقد توجه إلى «صلاح» وطلب منه أن يتحدث إلى أخيه ويحاول إقناعه، وبالفعل بدأ حديث «صلاح» يؤثر على «ياسين»؛ فقد لعب على رغبات الطفولة التي طالما حُرم منها، أغراه باللعب وحياة الرفاهية التي سيتمتع بها، وطمأنه بأنه سوف يزور «يوسف» وقتما يريد، وبمرور الوقت بدأ «ياسين» يقتنع، خاصة بعد أن اصطحبه «صلاح» إلى الفيلا التي يعيش فيها أبواه المستقبليان ورأى «ياسين» أشياء مبهرة لم يرَها من قبل: حديقة واسعة وحمام سباحة وغرفة ألعاب، حتى غرفة النوم كان يرى مثيلاتها في أحلامه فقط.

بمرور الأيام أصبحت فكرة الرحيل أكثر قبولا بالنسبة لـ«ياسين»، وجاء الوقت الذي أبدى فيه لـ«يوسف» موافقته على الذهاب، حينها شعر «يوسف» بأحاسيس متضاربة؛ فعلى الرغم من فرحته لأنه قد وفر لأخيه حياة أفضل فإنه شعر بخوف شديد من أن يكون قد ضيع آخر جزء متبقٍّ

منه، رد «يوسف» قائلا: يعني انت ما بقيتش متضايق؟

- مش أوي، أصل هما طيبين زي ما انت قولتلي، وبعدين «صلاح» قال لي إني هبقى أشوفك وقت ما أحب.

حاول «يوسف» أن يداري ضيقه وحزنه ورسم على وجهه ابتسامة كاذبة ليُرضي بها أخاه: صح.. إحنا هنشوف بعض زي ما إحنا عايزين.

سادت لحظة صمت ثم استأنف «ياسين» حديثه قائلا: هما عايزيني أروحلهم بكرة.

لمعت عينا «يوسف» من الصدمة ثم قال: بكرة.. بسرعة كده؟

- آه، أصلهم هيسافروا الغردقة وعايزيني أروح معاهم.. أنا لما كنت عندهم إمبارح جابولي لبس وحاجات كتير أوي للمصيف، استنى هاوريهالك.

شاهد «يوسف» الملابس والأشياء التي أحضرها هذان الزوجان لـ«ياسين».. كان يتحدث مع أخيه ويبتسم، لكن بداخله حزنا شديدا، لكنه لم يعرف مبرره؛ فهذه كانت رغبته وفكرته من البداية، أما الآن فهو يتمنى أن تعود الأيام ويتراجع عن هذا القرار.

بعد أن فرغ الاثنان من مشاهدة تلك الأشياء قضى «يوسف» الليل يجهز حقيبة أخيه، ثم نام الاثنان على سرير واحد لآخر مرة، كانت ليلة صعبة كثيرا على «يوسف» تكاد تذكره بليلتَي فراقه لأبيه وأمه، تمنى أن يطول الليل وأن تمتنع الشمس عن الظهور ويقف الزمن عند هذه اللحظة ليظلا معا، وكان الشيء الوحيد الذي يعينه على التحمل هو إحساسه بأنه فعل الصواب وأنه قد نفذ ما أوصى به أبوه وحافظ على أخيه قدر ما يستطيع، اقترب من أخيه وضمه وظل مستيقظا حتى الصباح، وبمجرد أن صحا أخوه من النوم ساعده على ارتداء ملابسه، ثم احتضنا بعضهما بقوة وقال

- أنا هقولهم ياخدوك معايا.
- لا يا «ياسين»، أنا مرتاح هنا، انت لما تحب تشوفني تعالى.
جلس «ياسين» على السرير وجلس «يوسف» على الكرسي الذي يقابله، كان يبدو على «ياسين» الحزن الشديد، رفع رأسه وقال لـ«يوسف»: انت هتوحشني أوي يا «يوسف».
كان «يوسف» قد عاهد نفسه على ألا يبكي أمام أخيه حتى لا يصعب الموقف على كليهما، فرد متماسكا: انت كمان هتوحشني.
دمعت عينا «ياسين» وقال: أنا خلاص مش عايز أروح، مش مهم اللعب ولا أي حاجة.
اقترب «يوسف» من «ياسين» وجلس بجانبه وأسند رأسه على كتفه قائلا: لا يا «ياسين» انت راجل، والراجل لما يقول كلمة لازم ينفذها.
- بس أنا مش عايز أسيبك، أنا خايف.
نظر له «يوسف» وقال: خايف من إيه؟ انت هتسافر وهتتفسح وهتعمل كل اللي في نفسك، بس أنا عايزك تفتكر الكلام اللي كان بابا بيقولهولنا، لازم تبقى شاطر وتذاكر، واوعى تكدب أو تعمل حاجة غلط.
أومأ «ياسين» برأسه بطريقة طفولية وظل مستندا على كتف أخيه إلى أن سمعا صوت منبه السيارة.. دخل «صلاح» بعدها بثوانٍ إلى الغرفة وقال لـ«ياسين»: يلا يا «ياسين».
تلكأ «ياسين» في القيام، لكن أخاه أشار له بالمضي في طريقه، أمسك «صلاح» بيده وخرجا من الغرفة، أما «يوسف» فلم يرد أن يراه وهو يغادر؛ فهو لا يستطيع أن يحتمل هذا الشعور مرة أخرى، كانت هذه أطول لحظات مرت عليه، لكنه نهض فجأة وكأنه تذكر شيئا وجرى إلى الخارج مناديا على أخيه الذي لم يكن قد وصل إلى السيارة بعدُ، توقف أخوه وترك يد «صلاح» وجرى تجاهه، احتضنا بعضهما بقوة، ثم

خلع «يوسف» السلسلة التي كان والده قد علقها حول رقبته وألبسها لـ«ياسين» وقال له: خلي بالك من دي، وما تقلعهاش مهما حصل.

أومأ أخوه برأسه وعيناه تملؤهما الدموع.

نظر «يوسف» إلى الخارج فوجد الجميع ينتظر خروج أخيه فقال له: يلا روح، ما تتأخرش عليهم.

ذهب «ياسين» لكن ظل نظره معلقا على أخيه وظل يلوح له مودعا حتى غادرت السيارة وصعد «يوسف» إلى غرفته وحيدا تماما هذه المرة، فلم يعد بجانبه أحد منذ ذلك اليوم.

***

ازدادت الأيام صعوبة بعد هذه اللحظة؛ فالبكاء الذي عاهد «يوسف» نفسه ألا ينزل أمام أخيه لم يستطع أن يمنعه خلال الأيام التالية؛ فكان لا ينام ولا يأكل ولا يرسم، فقط يتذكر «ياسين» وهو يشاركه هذه الأفعال كلها، صحيح أن «ياسين» زاره بعد ذلك أكثر من مرة، لكن مع مرور الوقت بدأت الزيارات تقل ومشاغل أخيه تزيد؛ فهو يحيا حياة أخرى الآن؛ فهناك مواعيد المدرسة والنادي والفسح وغيرها.

شعر «يوسف» بعد فترة أن أخاه قد استغنى عنه بعد أن تغيرت حياته؛ فقد أصبح من بقايا ماضيه الأليم، مجرد لافتة عابرة في طريق مستقبله وحياته الجديدة.

وبمرور الوقت انقطعت الزيارات واعتاد «يوسف» أن يعرف أخبار أخيه من «صلاح»، فكان يطمئن عليه باستمرار، لكن بعد فترة شعر هو الآخر أن حياته في الجمعية آن لها أن تنتهي؛ فكل ركن فيها يذكره بأخيه، ولماذا يظل هنا؟ إنه الآن في الثانية عشرة من عمره، وبعد أربع سنوات سيكون مضطرا أن يترك هذا المكان.. فما الفرق؟ ليتركه الآن علّه يستريح من إحساس الوحدة الذي لم يكن يشعر بشيء سواه.

أيام وترك «يوسف» الجمعية وعاد إلى الشارع مرة أخرى، لكن هذه المرة كان يعرف القواعد جيدا ويعرف كيف يعيش في هذا العالم المنعزل.

***

الفصل الحادي عشر

على الجزيرة

اقترب القارب من شاطئ الجزيرة فتوقف «يوسف» عن الحكي، وساعد «نور» على النزول، ثم ثبَّت القارب في الأرض جيدا ودخل إلى البيت الذي يمتلكه الصياد، كان من الخوص وكان به حصيرة مفروشة على الرمال للنوم عليها.

نظرت «نور» إلى المكان وقد أصابها الخوف؛ فعلى الرغم من أن مساحة الجزيرة ليست واسعة، بل على العكس إنها صغيرة وتبعث على الراحة بما فيها من خضرة والمياه التي تحيط بها من كل جانب، فإن المكان هادئ بشكل مخيف، دخلت إلى البيت ثم قالت لـ«يوسف»: إحنا هنّام هنا؟

- آه.

-وهناكل ونشرب إزاي؟

- أنا قولت للصياد كل يوم هيوصل لنا الأكل والشرب اللي إحنا عايزينه.

-افرض بلغ عنك.

- ما تخافيش.. الفلوس تعمل كل حاجة.. المهم إننا نخلص الجواب بسرعة، ما بقاش قدامنا كتير.

***

عاد اليأس إلى والد «نور» ثانية بعد أن وصل إلى سيناء ووجد أن الشرطة لم تستطع الإمساك بخاطف ابنته على الرغم من أنه كان على بُعد خطوات منهم، كما أنه شاهد بنفسه الغرفة التي احتُجزت بها «نور» طوال الفترة الماضية، ما زاد من قلقه وتوتره.

في هذه الأثناء، اقترب أحد اللواءات المسئولين عن القضية من «حازم» وقال له: «حازم بيه»، ممكن ثانية واحدة؟

أومأ «حازم» برأسه وسار عدة خطوات بعيدا عن باقي الضباط ووالد «نور».

- أنا طبعا مقدر موقف حضرتك، بس أنا مضطر أسألك عن حاجة كده.

- اتفضل.. خير؟

- حضرتك ما شكتش إن يكون بين الآنسة «نور» والمتهم معرفة سابقة، يعني قبل الخطوبة؟

- نعم؟ لأ طبعا، أنا خطيبتي هتعرف واحد مجرم زي ده منين؟ وبعدين حضرتك بتسأل السؤال ده ليه؟

- لأن واحد من الضباط شاف الآنسة «نور» وهي سايقة العربية بنفسها وهما بيهربوا، يعني ممكن مثلا...

- ممكن إيه؟ ده مستحيل، لو ظباطك ما عرفوش يرجعوها دي مشكلتكوا، لكن يخترعوا حكاية علشان يغطوا على خيبتهم فأنا مش هسمح بكده.. وهحاسب أي حد يتكلم عليها.

علا صوت «حازم» أثناء الحديث وسمعه والد «نور» فاقترب منهما ووجه كلامه لـ«حازم» قائلا: فيه إيه يا «حازم»؟ إيه اللي بيحصل؟

صمت «حازم» برهة وسبقه اللواء في الرد: مفيش حاجة، أنا كنت بطمن «حازم بيه» إننا من دلوقتي هنبدأ تفتيش في المنطقة كلها لحد ما نلاقي الآنسة «نور» إن شاء الله.

نظر «حازم» له واكتفى بالصمت وبادله اللواء تلك النظرة ثم تركهما متوجها إلى الضباط وأمرهم بتشميع الغرفة وتمشيط المكان بالكامل.

***

قضى «يوسف» و«نور» باقي النهار في استكشاف المكان، دخلا بين الأشجار وصعدا الصخور الموجودة في الجزيرة، وفي المساء أشعل «يوسف» نارا لتدفئهما وجلس الاثنان أمام البحر متأملين أمواجه المتلاحقة وجو الهدوء الذي يفرضه المكان.
قطعت «نور» هذا الهدوء قائلة: أنا مش فاهمة أنا ازاي جيت معاك هنا، وليه رجعت رغم إني كان نفسي أخلص منك بأي شكل!!
ابتسم «يوسف» وقال لها: أحلى حاجة إن الواحد يعمل اللي ييجي على باله من غير ما يسأل نفسه ليه.
صمتت «نور» برهة ثم قالت بتردد وبلهجة ساخرة: وانت لما تاجرت في المخدرات وقتلت عمك، كنت بتعمل اللي جه على بالك؟
نظر لها «يوسف» صامتا ثم اندفع الكلام على لسانه: أنا بقالي كتير أوي ما بقدرش أعمل الحاجة اللي أنا عايزها، بعمل بس الحاجات اللي مضطر ليها.
-والجواب.. مضطر تكتبه؟
- في الأول.. آه كنت مضطر، خفت أموت و«ياسين» بيكرهني بسبب اللي بيقراه عني كل يوم في الجرايد، لكن دلوقتي أنا مش عايزك تكتبي، أنا عايزك تسمعيني وتفهميني.. علشان كده أنا هقولك الحقيقة وانتي اكتبيها زي ما تحبي ووقت ما انتي عايزة:

«أنا لما رجعت الشارع كنت خلاص اتعلمت، عرفت إن الضعيف مالهوش مكان، حشرة بتداس بالرجلين وما حدش بيحس بيها، فقررت إني مش هكون ضعيف تاني، فهمت السكة ماشية ازاي ومشيت فيها، جبت بضاعة ووقفت أبيعها في الشارع، بس حتى الشارع ليه أصول، كل واحد عارف مكانه، وعلشان يبقى ليكي مكان لازم تاخديه بالقوة، وفعلا استوليت على مكان واحد من البياعين، ضربته وخدت مكانه، ومن ساعتها ما حدش بقى يقدر يتجرأ عليَّ، كنت بخلص بيع طول النهار وأنام جنب البضاعة لحد الصبح وأصحى أكمل، فضلت على كده كتير، الليل زي النهار وبكرة زي بعده مفيش جديد.

بعد فترة تعبت ولقيت إن الشغلانة دي مش جايبة همها، بتعب طول النهار وفي الآخر بيبقى معايا ملاليم، رغم إن فيه عيال تانية أصغر مني وبتلعب بالفلوس، كل اللي كانوا بيعملوه إنهم ينقلوا شنط المخدرات بين المعلمين من مكان للتاني، بدأت أشتغل زيهم وأنا عندي ١٤ سنة».

-كان كل همك الفلوس؟

- كان همي إني أرتاح، وبرده فرحت بالفلوس، أجرت أوضة وبقيت بنام فيها بدل ما أنام في الشارع، بس طبعا كتر الفلوس خلاني بقيت واحد تاني، اتعلمت أشرب وأضرب وأشتم وأعمل أي حاجة تتخيليها، ونسيت أبويا وأخويا وأمي، حتى الرسم انتهى.. نسيت حتى مسكة الفرشة، بقت الحياة بالنسبة لي لون واحد مالهاش طعم ولا معنى (صمت «يوسف» برهة وكأنه حزين لتذكره هذه الأيام ثم تنهد واستأنف كلامه بحزن):

«بعد كده بقيت طماع، والفلوس اللي بجيبها من توصيل الشنط ما بقيتش كفاية، فطلبت من المعلم يشغلني في حاجة تانية بتجيب فلوس أكتر».

ردت «نور» ساخرة: هو فيه حاجة بتجيب فلوس أكتر من المخدرات؟!

نظر لها «يوسف» ثم قال: آه، البني آدمين.
بدا على «نور» الصدمة: تاجرت في البني آدمين؟!
صمت «يوسف» برهة وأشعل سيجارة وأخذ منها نفسا عميقا ثم قال: يعني، حاجة زي كده، بقيت موصلاتي، مهمتي أجمع أكبر عدد من العيال اللي في الشوارع وأحطهم في عربية وأوصلهم للمعلم.
-بتخطفهم يعني؟
- لأ.. هما أصلا بيبقوا عايشين في الشارع، كنت بغريهم بالفلوس علشان ييجوا معايا، واللي بيعصلج بحطه بالعافية.
صمت «يوسف» للحظات ثم استأنف حديثه مترددا: كان المعلم بيستخدمهم في الشحاتة، بيحطهم في أوضة ويعمل لكل واحد علامة: يحرقهم، يعورهم، أي حاجة تأثر على الناس علشان يدوهم فلوس..
في الوقت ده كان عمري ١٦ سنة، بس بدأت أحس إنه ٦٠ من كتر اللي شوفته، شكلهم وهما بيتعذبوا قدام عيني كل يوم كان بيخليني أحس بذنب فظيع، وبقيت أشرب أكتر من الأول، كنت بشرب ليل نهار علشان ما احسش باللي بعمله، فضلت كده لحد ما جه وقت وفُقت، بس متأخر أوي.
-إمتى؟
تحدث بندم: لما شوفت واحد منهم بيموت.
نظرت له «نور» بشيء من الضيق: انت اللي موِّتّه؟
- مش بإيدي، بس أنا السبب طبعا.
صمت «يوسف» فترة ودمعت عيناه ثم استأنف كلامه: كان عنده ٦ سنين، وأنا شديته وحطيته بالعافية في العربية، وصلته ليهم وسيبتهم يضربوه، ما اتدخلتش، مش عارف ليه ما اتدخلتش، يمكن خُفت، ويمكن لأني ياما حصل لي أكتر من كده وما لقيتش حد يساعدني.. المهم إني سيبته

لحد ما مات في إيديهم، بعدها حطوه في شوال ورموه في الشارع.
نظر «يوسف» إلى «نور» فوجدها تنظر إليه بقسوة: «عندك حق، لازم تحسي إني حيوان، مجرد كلب بينفذ الأوامر، أنا كنت كده فعلا، بس فُقت، بعد اللي حصل ده فُقت، ورفضت أشتغل.. وطبعا المعلم ما حبش إن صبي عنده يقول له لأ، شيلني قضية سرقة وقعدت ٣ سنين في الإصلاحية، صحيح الحياة جوه كانت صعبة، يمكن أصعب من الشارع، بس أنا حاولت أرجع لطبيعتي، بدأت أبطل شرب واتعلمت النجارة، بقيت بصلي، كنت بدعي دايما ربنا يغفر لي.
لما خرجت من الإصلاحية كان عندي ١٩ سنة وما كانش معايا ولا تعريفة، دوَّرت على شغل لحد ما لقيت واحد شغلني عنده في ورشة نجارة من غير حتى ما يطلب إثبات شخصية.. كان بيخليني أبات في الورشة لحد ما قدرت بعدها بفترة أأجر أوضة أقعد فيها.. بس ومشيت الأمور طبيعي حوالي ٤ شهور لحد ما في يوم وأنا بشتغل في الورشة لقيت عمي واقف على الباب وبيبصلي كأنه لقى كنز»..
تنهد «يوسف» وصمت برهة ثم استكمل حديثه: ساعتها عرفت إن عقابي عند ربنا لسه ما انتهاش وإن فيه حاجة كبيرة هتحصل بس ما كنتش أعرف إيه هيّ.
- تفتكر ده بس العقاب اللي انت تستحقه؟!
كانت كلمات «نور» قاسية جدا على «يوسف» لدرجة أنها فاجأته، نظر إليها ولم يستطع الرد وأدار وجهه جانبا، حينها شعرت «نور» بمدى قسوة كلماتها فحاولت إصلاح ما فعلت: أنا آسفة، مش قصدي، بس فيه حياة بني آدم راحت قدام عينيك، وانت شايف إن ٣ سنين في الإصلاحية عقاب كافي؟! وبعدين انت كمان قتلت عمك، يعني ما حستش بالندم، يبقى ازاي بتقول إنك اتغيرت لما خرجت من الإصلاحية؟ انت بتكدب على

أخوك ولا عليَّ ولا على نفسك؟!

نظر «يوسف» إلى «نور» ولم يستطع الرد، غرس سيجارته في الرمال ليطفئها ثم قال لـ«نور»: ممكن تسيبيني لوحدي شويّه؟

- لو اتضايقت من كلامي أنا آسفة.. بس أنا بقولك اللي حساه.

- لا أبدا، أنا بس عايز أقعد لوحدي شويّه.

قامت «نور» ودخلت إلى البيت وهي تشعر بشيء من الضيق والندم لأنها قالت مثل هذا الكلام.

أما «يوسف» فقد جعلته كلمات «نور» يكره نفسه كثيرا، على الرغم من أنه ليس صحيحا أنه لم يشعر بالندم؛ فهو قد أصابه الندم على كل خطوة خطاها وكل نَفَس دخل رئتيه منذ أن غادر الجمعية، لكن الحقيقة أن شيئا واحدا لم يندم عليه أبدا وهو قتله لعمه، فإذا عاد به الزمن لكان سيقوم بالشيء نفسه مرارا وتكرارا دون ألم أو ندم.

***

ظل «يوسف» جالسا أمام البحر لساعات يتذكر حياته منذ اليوم الذي شاهد فيه عمه مرة أخرى، أول ما اهتم به بعد ذلك هو أن يسأله كيف عرف عنوانه.. اصطحبه إلى سطح العمارة، حيث الغرفة التي يعيش فيها، ليتحدثا في هذا الأمر، رد عمه: ليه كنت فاكرني هغلب؟ انت صحيح دوختني انت وأخوك شويّه لحد ما لقيتكوا، لكن بعد كده ربنا هو اللي ساعدني علشان عارف أنا بحبكوا قد إيه.

نظر «يوسف» لعمه نظرة احتقار ثم قال: ولما انت عارف مكانّا من زمان، ما شوفتكش ليه غير دلوقتي؟

عمه: روحتلكوا الجمعية اللي كنتوا قاعدين فيها لقيتكوا مشيتوا، سألت عليكوا في الشوارع لحد ما عرفت إنك بتشتغل عند معلم اسمه طه، بس على ما وصلتلك قالولي إنك دخلت السجن، ما تتخيلش قلبي اتقطع قد إيه لما عرفت كده.

- علشان كده ما جيتش زرتني ولا مرة.

عمه: المهم بلاش نفكر في اللي فات، المسامح كريم، خلينا نفكر في اللي جاي.

- وهو إيه اللي جاي؟

عمه: انت و«ياسين» لازم تيجوا تعيشوا عندي، ما ينفعش تتبهدلوا كده وانا عايش.

بدا على «يوسف» الغضب الشديد بمجرد سماعه هذا الكلام ورد بانفعال: بص.. لو عايز تستغلني تاني أنا وأخويا ده مستحيل، «ياسين» انت تنساه خالص، وأنا ما لكش دعوة بيَّ، أنا عايش كويس الحمد لله.

عمه: عايش كويس ولا عايش براحتك؟ صياعة وشرب وإجرام ومسخرة، ويا عالم أخوك كمان مصيره إيه.. انت عايزني أسيبكوا كده؟!

- أمال ليه سيبتني في الشارع وأجرتني بخمسين جنيه في اليوم؟ ليه

حرمتني من التعليم وشغلتني أنا وأخويا خدامين ليكوا؟ ليه سيبتني للناس تبهدل فيَّ؟ ليه ما جبتليش حقي لما عرفت اللي عملوا العيال الشوارعية دول فيَّ؟! (كان «يوسف» يتحدث بصوت عالٍ وعصبية شديدة).

نظر له عمه ولم يرد.

استأنف «يوسف» حديثه: أنا عايزك تتطلع بره، انزل من هنا دلوقتي حالا، مش عايز أشوف وشك.

أوشك عمه على المغادرة، لكنه توقف واستدار مرة أخرى وتحدث إلى «يوسف»: الراجل اللي بتشتغل عنده ما يعرفش إنك كنت مسجون، صح؟

- وانت مالك؟ حاجة ما تخصكش.

ابتسم عمه ابتسامة ساخرة ثم قال: لأ طبعا، دي تخصني أوي.

اقترب منه رويدا وأمسك بقميصه بقوة: بص يا شاطر، أنا عايز نص الفلوس اللي بتاخدها من الورشة دي، وعايزك تقولي مكان «ياسين» دلوقتي حالا وإلا أنا هعرف أتصرف ازاي.

أنزل «يوسف» يدي عمه من على قميصه بقوة ثم قال: اطلع بره، ما تجيش هنا تاني.

ابتسم عمه ساخرا ثم أومأ برأسه إيجابا وقال: زي ما تحب، بس افتكر إني حذرتك.

غادر عمه بعد أن أصاب «يوسف» بحزن وخوف شديدين؛ فهذا الرجل بلا مبادئ، ومن الممكن أن يفعل أي شيء، وماذا عن أخيه «ياسين»؟ إنه يخشى بشدة عليه؛ فقد ضحى بالكثير ليوفر له حياة هادئة مستقرة، هل سيضيع كل ذلك؟

مر هذا اليوم عليه طويلا ولم تغفل له عين، وفي الصباح ذهب إلى الورشة

ليجد نفسه مطرودا؛ فقد أخبر عمه صاحب الورشة بسره وبالتالي لم يعد من الممكن أن يسمح له صاحب الورشة بالاستمرار في عمله.

عاد «يوسف» إلى غرفته وقضى بها اليومين التاليين مكتئبا متعبا، فهو لم يذق الطعام منذ أن طُرد من العمل.

دق باب غرفته بعد ذلك، ليجد فتاة في حوالي الـ١٦ من عمرها، عرَّفته بنفسها؛ فهي رحاب يحيى الصاوي، ابنة عمه، تجسست على والدها وعرفت العنوان وجاءت لتبلغه أن عمه قد عرف من الجمعية المكان الذي يعيش فيه «ياسين» منذ أن تم تبنيه وأنه عازم على الذهاب بعد عدة ساعات إلى هناك ليحضره بالقوة، وإذا امتنع سيجعل الشرطة تقوم بالمهمة.

هذا الكلام جعل «يوسف» يستشيط غضبا، لم يدرِ ماذا يفعل.. فهو لن يستطيع أن يظل صامتا مكتوف اليدين أمام ما يحدث، إذا كان مستقبله مدمرا بالأساس، فهو لن يسمح لهذا الشخص الانتهازي المريض بأن يدمر حياة أخيه.

شكر ابنة عمه وطلب منها الانصراف بعد أن عقد العزم على أن يتخلص من هذا الشخص.

***

لم يُخرج «يوسف» من ذكرياته سوى شعوره ببرد شديد، فقد انطفأت النار التي كانت تدفئه.. دخل إلى البيت ليرى «نور» نائمة، هي في الحقيقة مثَّلت النوم عندما شعرت به يقترب.. وبمجرد أن نام هو فتحت عينيها وأخذت تتأمله، صبي في هذا العمر - ١٩ عاما - كيف مر بكل ذلك واستطاع المضي؟! شعرت بداخلها أنها أخطأت في حقه؛ فهو إن فعل أشياء خاطئة فربما بسبب الظروف التي مر بها، لماذا قالت له هذا الكلام المحرج القاسي؟ ألا يكفيه ما فيه من تشتت وعذاب؟! كانت نظراتها إليه تطول ويطول معها تفكيرها في المستقبل؛ فهي لا تستطيع أن تتقبل فكرة أن «يوسف» محكوم عليه بالإعدام.. ماذا إذا قبض عليه البوليس، غدا، أو بعد غد، بعد أسبوع، شهر، سنة؟ هل سيُعدم فعلا؟ ألا يمكن إعطاؤه فرصة ثانية؟

استلقت «نور» على ظهرها ونظرت إلى أعلى مفكرة، لكن هذه المرة في نفسها.. لماذا تفكر فيه بهذه الطريقة؟ لماذا تتعمد أن تضايقه وتتناقش معه بحدة علَّها ترى ابتسامته، ساخرة كانت أو حزينة؟ لماذا هذا الاهتمام الشديد بشخص من المفروض أنها مجبرة على الوجود معه؟ إنها لم تستمتع أبدا بالحديث مع «حازم» كما تستمتع بالحديث مع «يوسف»، تحب أن تراه، عصبيا كان أو هادئا، تعشق النظر إلى ملامحه أثناء صمته وكلامه، حتى حين يفرض عليها أي شيء تكون من داخلها سعيدة باهتمامه بها.. قضت «نور» ليلتها وهي تتساءل دون أن تجد إجابة، إلى أن نعست قرب الصباح، لكن ليس كثيرا؛ فقد استيقظت قبل الظهر بقليل ولم تجد «يوسف» بجوارها، خرجت من البيت لتجده يعطي الصياد أموالا ويأخذ منه الطعام.

بعد ذلك غادر الصياد مسرعا، واقترب «يوسف» منها حاملا الطعام، حاولت أن تبدأ بالحديث فألقت عليه التحية، لكنه ردها بشكل جاف

فرأت أن تصمت إلى أن تشعر بأنه قد نسي ما حدث بالأمس.
حضَّر «يوسف» الإفطار بعدها بدقائق وجلس الاثنان يتناولان الطعام في صمت، وبعد أن انتهيا همَّ «يوسف» ليزيل الطعام وينظف المكان، لكن «نور» قاطعته قائلة: خليك انت، أنا هشيله.
انشغلت «نور» في تنظيف المكان ونظرت بعدها إلى «يوسف» لتجده يخلع قميصه ويتجه نحو البحر، اقتربت منه.. وقفت على الشاطئ وقالت له: انت بتعمل إيه؟

- زي ما انتي شايفة، هانزل أعوم.
- يا روقانك، إحنا هربانين ولا بنصيف؟ استدارت «نور» لتعود إلى البيت، لكن استوقفها صوت «يوسف» قائلا: دي تاني مرة تقولي إحنا..
- إيه؟
- دي تاني مرة تقولي إحنا.

نظرت له «نور» بغرور وقالت: آه.. وفيها إيه يعني؟
ابتسم «يوسف» ورد: فيها كتير.
ابتسمت «نور» باستعلاء وقالت ساخرة: انت نسبة ذكائك عالية أوي، المفروض كنت تطلع وكيل نيابة.
ابتسم «يوسف» وقال: تعالي عومي معايا.

- مش بقولك نسبة ذكائك عالية، أعتقد يا ذكي إني أول حاجة قولتهالك إني ما بعرفش أعوم، ثانيا: حتى لو هنزل مش هيبقى معاك.

همت «نور» بالابتعاد لكنها فوجئت بمياه باردة تُلقى عليها من الخلف.
استدارت بعصبية: انت...

- كده الفستان اتبل.. تعالي بقى.
- انت مجنون.

خرج «يوسف» من المياه وحملها بالقوة وقال: انتي لسه عارفة دلوقتي؟

دخل «يوسف» و«نور» إلى المياه وأخذ يبتعد بها وهي تصرخ بشدة، فقد كانت تخشى الغرق، حينها قال لها «يوسف»: لو ما بطلتيش صويت هسيبك هنا في وسط المياه.

- لأ.. لأ إوعى تسيبني.

كانت «نور» تتحدث بعصبية ووجهها محمر بشده، أما «يوسف» فقد كان مبتسما بشدة، وقال لها: ما تخافيش.. حطي إيدك حوالين رقبتي (بدأ يتركها بالفعل).

كانت «نور» تصرخ بشكل متواصل: لا.. لا.

- ما تخافيش.. خليكي ماسكة في رقبتي، وبعدين أنا واقف على الأرض، يعني مش هتغرقي ولا حاجة.

- فين؟ فين الأرض؟ أنا مش حاسة بحاجة.

- علشان انتي قصيرة.

كانت «نور» تلف ذراعيها بشدة حول رقبة «يوسف»، أما هو فكان ممسكا بخصرها.

- بمناسبة الموقف ده أنا عايز أسألك شويّة أسئلة.

نظرت له «نور» ولم ترد؛ فقد كانت متوترة بشدة.

- أول سؤال هو: «حازم» خطيبك ده بيشتغل إيه؟

- بتسأل ليه؟

- مجرد سؤال.

- «حازم» خريج كلية هندسة، الجامعة الأمريكية، ومعاه دكتوراه من جامعة أكسفورد ومدرس مساعد في الجامعة الألمانية ومدير في شركة باباه.

بدا على «يوسف» الصدمة: امممم!! على كده هو مشغول على طول.

- يعني..

- وانتي؟
- أنا مالي؟
- انتي فين وسط كل ده؟
- موجودة.. صحيح مش دايما بس «حازم» بيحبني ومهتم بيَّ.
- وانتي بتحبيه؟
- بتسأل ليه؟
- مجرد سؤال.
- هي حاجة ما تخصكش، بس علشان تطمن أيوه طبعا بحبه.

نظر لها «يوسف» ثم قال: متأكدة؟

«نور» (أصابها الغضب): أيوه طبعا.. وليه ما ابقاش متأكدة؟

- مش عارف، بس مش باين عليكي، مفيش حد بيحب بتبقى عينيه حزينة أوي كده، حتى يوم فرحك كنت براقبك من بعيد، كنتي تايهة زي ما تكوني بتدوري على مخرج ومش لاقية.

نظرت «نور» إلى «يوسف» وصمتت فترة ثم قالت بضيق: أنا بردانة، وعايزة أرجع.

حملها «يوسف» وعاد الاثنان إلى الشاطئ، جلسا على الرمال في مواجهة البحر وظلا صامتين فترة إلى أن بادر «يوسف» بالحديث: انتي زعلتي من كلامي؟

ردت «نور»: لا أبدا مفيش حاجة (كانت لأول مرة تتحدث بمثل هذه الجدية).

حاول «يوسف» أن يخرجها من حالة الحزن هذه فقال لها: أنا جعان أوي، انتي ما جوعتيش؟

- إحنا لسه واكلين.
- ناكل تاني.. إحنا ورانا حاجة تانية نعملها؟

ابتسمت «نور» ثم قالت: أيوه ورانا، تعالى نلعب، قضيا وقتهما بعد ذلك في اللعب بالرمال والمشي على الشاطئ إلى أن حل المساء فأشعل «يوسف» النار لتدفئهما كالمعتاد وجلس الاثنان صوب البحر متأملين إياه، ينصتان إلى صوته كأنه يعوضهما عن الصمت الرهيب السائد في المكان، وفجأة تحدثت «نور» قائلة: فيه حاجات كتير من اللي قولتهالي الصبح صح.

نظر لها «يوسف» وتركها تستكمل حديثها.

- أنا عمري ما حسيت إني مبسوطة مع «حازم»، بس العيب مش فيه، هو كتير بيحاول يرضيني، لكن عمري ما حسيت إنه قريب مني.

- وليه كملتي معاه؟

- مش عارفة، كتير فكرت أسيبه، بس كنت بتخيل حياتي بعد كده، خفت تبقى فاضية، مفيش حاجة أعملها، أنا ما جربتش أشتغل، ولا بخرج كتير، وأصحابي مش قريبين مني أوي.. «حازم» بيخليني أقدر أكلم الناس، بيخرجني، بيشجعني أعمل حاجات ما بقدرش أعملها وأنا لوحدي..

- عارفة انتي ليه بتحسي إنك لوحدك؟

ردت «نور» باستغراب: ليه؟

- علشان انتي حاجة مختلفة أوي، عاملة كده زي.. زي لون ما بيتشافش بالعين ولا بيتحط على الورق، لحن هادي وسط موسيقى نشاز، مش سهل حد يفهمك أو يحسك.

نظرت له «نور» طويلا فهي لم يسبق لها أن سمعت مثل هذا الكلام من قبل.. جلس الاثنان صامتين فترة إلى أن تحدث «يوسف»: أنا قتلته علشان كان ناوي يروح لـ«ياسين» ويرجّعه بالعافية.

- عمك؟

أومأ «يوسف» برأسه إيجابا ثم استأنف حديثه: بنته جت قالتلي على اللي

ناوي يعمله، خفت ورحتله البيت علشان أمنعه، حاولت بكل الطرق، بوست إيده ورجله، لكن مفيش فايدة، سابني ونزل، جريت وراه على السلم، وقَّفته ومنعته بالقوة، شتمني وضربني، كنت مجهز نفسي لكده، وعملت حسابي على الحل التاني، خرجت المطوة وضربته بيها.

صمت «يوسف» برهة ثم استكمل: بعد أول ضربة افتكرت كل حاجة عملها فيَّ أنا واخويا، كل الظروف اللي مريت بيها بسببه، فضلت أضرب فيه وما حستش بنفسي غير وهو ميت على باب العمارة وأنا قاعد جنبه مش قادر أتحرك.. ثواني والناس اتلموا وكتفوني لحد ما جه البوليس، بعدها ابنه قال في التحقيقات إني قتلته علشان أسرقه، واني كنت بتزهم بقالي سنين علشان يدوني فلوس المخدرات اللي بشربها، وحاجات تانية كتير خفت «ياسين» يصدقها، علشان كده هربت وفكرت أكتبله الجواب ده.

- وليه اخترتني أنا بالذات؟

- بلاش تستعجلي، قريب أوي هتعرفي كل حاجة.

سادت لحظات من الصمت قطعتها «نور» قائلة: «يوسف»، انت ندمان؟

رد «يوسف» مترددا: أنا.. أنا خايف.. خايف أموت.

تأثرت «نور» بكلمته هذه وسكتت للحظة، ثم حاولت أن تغير الموضوع علَّه يتخلص من هذا الحزن.. فقالت مبتسمة: تيجي نلعب تاني؟

- نلعب إيه؟

- هقولك على لعبة كنت بلعبها مع صحابي وانا صغيرة، كل واحد فينا يقول أغنية بتعبر عن اللي جواه.. ابدأ انت.

- يعني أقولك أغنية عن اللي حاسس بيه دلوقتي؟

- آه.

فكر «يوسف» لحظة ثم بدأ يغني قائلا: حاسس بمصيبة جايالي...

ضحكت «نور» واستكمل «يوسف» غناءه ضاحكا: مصيبة ما كانتش على بالي..
علت ضحكات «يوسف» و«نور» بشدة وقالت: يا لطيف يا لطيف.. هو ده اللي انت حاسس بيه؟
تحدث «يوسف» ضاحكا: بصراحة.. آه.
نظرت «نور» إليه متفحصة؛ فهي لم يسبق لها أن رأته يضحك بمثل هذه الطريقة من قبل، لحظات وتوقف الاثنان عن الضحك، لكنهما استمرا في النظر إلى بعضهما البعض لفترة، أدارت «نور» وجهها للحظة ثم توجهت إلى «يوسف» قائلة: عارف، أنا كنت مستنية الفرح علشان أرقص سلو، كان نفسي أجرب الإحساس ده.
- مش دي الرقصة اللي بتحضنوا فيها بعض وكده؟
- آه.
- لو كنت أعرف إنها مهمة بالنسبة لك أوي كده، كنت خطفتك بعد الرقصة.
- طب ما تعوضهالي.
وقفت «نور» فجأة وأمسكت بيد «يوسف» وقالت: يلا قوم.
نظر لها «يوسف» باستغراب وقال: ليه؟
- علشان نرقص.
رد «يوسف» مبتسما: مفيش موسيقى نرقص عليها.
جذبته «نور» وأوقفته ثم اقتربت منه قائلة: هنرقص على الأغنية اللي أنا حساها.
نظر لها «يوسف» وأمسك بخصرها ثم قال: بس أنا ما بعرفش أرقص.
- هعلمك.. المهم مش الخطوات، المهم إنك تحس باللي بترقص معاها.. تحس بإيدها (لفت يديها حول رقبته).. بدقات قلبها (اقتربت منه أكثر)،

بصوتها (نظرت له ثم أسندت رأسها على كتفه وبدأت تغني) «وماله لو ليلة تُهنا بعيد وسيبنا كل الناس، أنا يا حبيبي حاسس بحب جديد ماليني ده الإحساس، وأنا هنا جنبي أغلى الناس، جنبي أحلى الناس».

استمرت «نور» في الغناء وشاركها «يوسف»، كانا يرقصان بانسجام وكأنهما يسمعان أنغام الأغنية في آذانهما، لم يسبق لـ«يوسف» أن شعر بمثل هذا الشعور من قبل، سعادة حقيقية خالية من الخوف والقلق، لم يعد يهمه الآن الموت أو الحياة، البقاء أو العودة، المهم ألا ينتهي هذا الإحساس.

إن ما هما فيه الآن أشبه بحلم، حلم جميل لا يريدان أن يستيقظا منه، ألا يمكن لهذه الجزيرة أن تسعهما للأبد، تحميهما من الدنيا، من البشر جميعا؟ أليس من حقهما أن يحتفظا بهذه السعادة قدر ما يريدان؟

فجأة انتهت الرقصة وشعر «حازم» بـ«نور» تقبله على خده الأيسر غير خائفة أو نافرة من جرحه العميق، نظر لها وكأنه لا يصدق ما يحدث وشعر أنه استيقظ من حلم جميل.

عاد «يوسف» ليجلس في مكانه مرة أخرى وظلت «نور» واقفة تنظر له ثم قالت: مالك؟

- مفيش.

اقتربت منه وجلست أمامه ثم قالت: سيبتني ليه؟

- مش مصدق اللي بيحصل.

- وهو إيه اللي بيحصل؟

- اللي بيحصل إني اتعلقت بيكي، رغم إني عاهدت نفسي من زمان إني لا أقرب من حد ولا أخلى حد يقرب مني.

- ليه؟

- لأننا قريب أوي مش هنشوف بعض أصلا.

- ما تقولش كده، ده مش هيحصل.
- انتي عندك شك إننا هنسيب بعض؟

صمتت «نور» برهة ثم قالت: حتى لو ده هيحصل، إحنا دلوقتي مع بعض، وأنا مش عايزة أفكر في أي حاجة تانية ما دام انت لسه معايا.

نظر لها «يوسف» ولم يستطع الرد.

***

استلقى الاثنان على ظهريهما وأخذا ينظران إلى السماء، كانت النجوم تلمع بشدة، والقمر واضح في السماء، فلا شيء يحجب رؤيته في هذه الجزيرة المنعزلة، قالت «نور» لـ«يوسف»: هو إحنا لو عدينا البحر ده هنروح فين؟

- هنعديه ازاي؟
- بالقارب ده.. ما ينفعش؟

ابتسم «يوسف» وقال: ده إحنا ناخدها عوم أأمن.

- بتكلم بجد، تعالى نحاول.
- ولو مُتنا؟
- مش مهم.
- بعد الشر عليكي.
- عارف لو عدينا وفضلنا عايشين أول حاجة نعملها إننا نتجوز.

رد «يوسف» ساخرا: مين؟ أنا وانتي؟ انتي بتحلمي؟

- انت تطول؟
- انت كلك ١٥٠ سنتي.

ضحكت «نور» ثم اعتدلت في جلستها ونظرت إلى «يوسف» وهو نائم

قائلة: بجد تخيل لو اتجوزنا هتبقى حياتنا عاملة ازاي؟

- أنا هفضل طول النهار أزعق واتأمر عليكي.

- وأنا هرد عليك وندبّها خناقة وأقعد أشهد عليك العيال.

- إحنا هيبقى عندنا عيال؟

- آه.. ٣، بنتين وولد.

- لا بقى، أنا لو هخلف يبقى مش أقل من سبعة ويبقوا كلهم ولاد.

- يا سلام، طبعا ما انت مش تعبان في حاجة، أنا اللي هتخن وابقى زي الكرمبة.

- هتبقي كرمبة زي القمر.

ابتسمت «نور» ثم قالت بصوت هادئ: يعني مش هتبص لواحدة غيري؟

- ما اقدرش.

ابتسمت «نور»، لكنها عادت لهيئة الجد سريعا وقالت: برده سبعة كتير أوي، هنلاقيلهم أسامي فين دول؟

ضحك «يوسف» ثم قال:

- خلاص، يلا نفكر في أساميهم من دلوقتي..

قضى «يوسف» و«نور» الساعات التالية يتحدثان عن حياتهما الافتراضية، مستقبلهما الذي لم يكن من المسموح أن يُرسم سوى في خيالهما، ظلا كذلك إلى أن غالبهما النعاس فناما مكانهما، لكن قبل النوم طلب «يوسف» من «نور» أن تنام على ذراعه هذه الليلة، ولم تعترض «نور»؛ فقد استندت على ذراعه وذهبت في نوم عميق، نام الاثنان دون أن يعرفا ما ينتظرهما في الصباح..

***

سرعان ما انقضى الليل وجاء الصباح.. فهذه عادة اللحظات الجميلة دائما أن تنتهي سريعا، هذا الصباح استيقظت «نور» مفزوعة على صوت لانشات تقترب، أما «يوسف» فكان لا يزال نائما بجانبها لم يوقظه الصوت. نهضت «نور» مسرعة واقتربت من المياه لتجد حوالي ٣ لانشات تتوجه بسرعة نحو الجزيرة.

نادت «نور» على «يوسف» فصحا مفزوعا ونظر تجاه اللانشات فوجدها بالفعل تقف ثم تسير مرة أخرى وكأنهم يستطلعون شيئا ما قبل الاقتراب من الجزيرة.

قالت «نور»: «يوسف».. إيه ده؟

نظر لها «يوسف» ولم يتحدث ثم نظر إلى اللانشات مرة أخرى وجذب «نور» من ذراعها واتجها نحو البيت وهو يقول لها: ده البوليس.

دخل الاثنان إلى البيت وبمجرد دخولهما قالت «نور» بفزع: ما دام البوليس دخَّلتنا هنا ليه؟ ما تيجي نهرب.

- هنهرب نروح فين؟ إحنا في وسط البحر.

- يعني إيه؟ يعني كده خلاص؟ مفيش حل؟ (كانت تتحدث مفزوعة وكأنها لا تصدق ما يحدث).

- لأ مفيش.

- مفيش ازاي؟ (دمعت عينا «نور» وبدأت تبكي) إحنا ممكن...؟

أمسك «يوسف» وجه «نور» بيديه وقاطعها قائلا: «نور».. «نور» أنا عايزك تهدي، مصيري أنا عارفه من زمان، وبقيت قادر أقبله خلاص.

في هذه الأثناء علا صوت اللانشات بشدة وعرف «يوسف» أن قدره قد أوشك على التحقق، مسح دموع «نور» بيديه ثم قال لها: انتي كنت عايزة تعرفي أنا ليه اختارتك انتي؟ سكت برهة ثم استكمل: في مرة حكيتي لي حكاية عن ولد غلبان لقى فانوس سحري واتمنى يبقى أمير

ويتجوز الأميرة اللي ساكنة في القصر البعيد، واللي حبها من أول مرة شافها فيها، قعدتي تهزري معايا، وأنا ضحكت، كانت أول مرة أضحك من بعد ما دخلت الجمعية، عاملتيني على إني بني آدم بعد ما كنت قربت أنسى، وما شفتش في عينك نظرة العطف اللي كنت بشوفها في عين أي حد بييجي يزورنا، بعدها فضلت أراقبك من ساعة ما تدخلي الجمعية لحد ما تمشي، وبعد ما سيبت الجمعية كنت باجي أشوفك من بعيد من بين السور لحد ما كبرتي، كنتي الحاجة الوحيدة اللي بتهون عليَّ الحياة بعد «ياسين»، ولما هربت من السجن كنتي أول واحدة أفكر فيها، كنت عارف انك هتسمعيني، وهتحسي بيَّ.

«نور».. أنا بحبك..

لم يكد «يوسف» ينتهي من هذه الكلمات حتى كانت الجزيرة تعج بالعشرات من ضباط الشرطة، دخل اثنان منهم إلى البيت الذي يجلس فيه «يوسف» و«نور» وقال له أحدهما: زي ما انت، وإيدك ورا ضهرك. تحرك «يوسف» قليلا فاقترب أحدهم منه وثبته على الأرض بقوة، قائلا: مكانك وإيدك ورا قولت.. يا حيوان.

نام «يوسف» بوجهه على الأرض ووُضعت يداه خلف ظهره بعد تقييدهما بالكلابشات، كان أكثر ما يحزنه أن «نور» قد شاهدته بهذه الحالة قبل أن يصطحبها أحد الضباط إلى الخارج.. بعد لحظات وصل لانش آخر عليه «حازم» الذي لم يكد يرى «نور» حتى جرى عليها واحتضنها بقوة وخلع السويتر الذي كان يرتديه وألبسها إياه قائلا: أنا ما كنتش مصدق إني هشوفك تاني.. وحشتيني أوي.

كان «حازم» يحتضن «نور» ويقبّلها دون أن تنتبه هي لأي شيء؛ فهي كمن دخل في غيبوبة عميقة، لا تصدق ما يحدث، لا تصدق أن «يوسف» موجود بالداخل يتألم من ضرب العساكر له دون رحمة، شعرت بأنها

لا تستطيع الكلام، أما «حازم» فاعتقد أن هذه آثار الصدمة؛ فـ«نور» مخطوفة منذ حوالي شهر، وهذه هي الحالة التي من المفروض أن تكون عليها.

لحظات وخرج «يوسف» بصحبة اثنين من العساكر، أخذا يركلانه ويدفعانه حتى وصل إلى أحد اللانشات، ألقوه فيه كأنما يلقون حجرا، وتولى الاثنان تثبيته حتى لا يقفز في الماء، كانت عينا «نور» دامعتين متعلقتين به، لكنها لا تستطيع الذهاب إليه؛ فـ«حازم» واضع يديه حولها وكأنه إذا تركها لحظة ستضيع، غادر اللانش بعد أن استدار «يوسف» ونظر لها آخر نظرة، مودعا إياها ومودعا الجزيرة التي قضى بها أحلى أيام حياته، كان مبتسما بحزن كأنه يريد أن يواسيها؛ فهو حتى في هذه اللحظة لا يفكر في نفسه، إنما فيها..

بعدها بدقائق شعرت «نور» بيد «حازم» وهو يساعدها على السير قائلا: يلا يا حبيبتي.. خلينا نمشي من هنا.

سارت مع «حازم» إلى اللانش وركب الاثنان، ظلت شاردة الذهن لا تتحدث ولا تنظر لأحد؛ فهي تفعل ما يحثها «حازم» على فعله ولا تقوى على المعارضة..

وصل اللانش إلى الشاطئ، وما إن نزلت «نور» حتى تذكرت آخر مرة كانت فيها هنا برفقة «يوسف».. دمعت عيناها فنظر لها «حازم» قائلا: ما تعيطيش يا «نور»، خلاص يا حبيبتي، انتي بقيتي معايا.

***

الفصل الثاني عشر

٧ أيام

قضت «نور» أياما بعد عودتها إلى المنزل لا تتحدث إلا بالقليل، كانت فرحة والدتها البالغة بعودتها ومبالغتها في إرضائها وتوفير كل ما تحتاجه لها يزيد أكثر من حزنها وضيقها؛ فهي تريد أن تبقى بمفردها ولا تتحدث مع أحد، فقط لتستمع إلى صوت «يوسف» يتردد في أذنيها، لتتذكر وجهه الضاحك الحزين.

كانت تخشى مجيء الليل؛ فهي إن ألهاها صخب النهار عن إظهار حزنها، لا تستطيع أن تمنع نفسها من البكاء ليلا، حتى «حازم» لم يعد قادرا على أن يخفف عنها ما تشعر به، بل إن تعاملها معه قد أصبح صعبا جدا، إنها لا تتحدث إليه مطلقا ولا ترد على تليفوناته، وحتى عندما يصعد إلى غرفتها ليراها تتظاهر بالنوم، حتى شعر بأنها تتجنبه عن عمد، إلا أن والديها قد أكدا له أنها مرهقة مما حدث لها خلال الأيام الماضية وأنها قريبا ستعود إلى طبيعتها، لكن.. هيهات.

لم تكن «نور» تهتم بأن يغضب «حازم» أو لا.. يتركها أو لا يتركها، فما يشغل تفكيرها هو: ماذا حدث لـ«يوسف» في الأيام الماضية؟ هل أُعدم أم لا؟ كيف يعاملونه؟ ما شعوره الآن؟ هل يفتقدها كما تفتقده؟ وفي أحد الأيام استيقظت مبكرا قبل الجميع وارتدت ملابسها وركبت سيارتها منطلقة إلى المكان الذي سيهديها إليه قلبها.

***

وصلت «نور» إلى السجن الذي قرأت في «الجورنال» أن «يوسف» قد تم ترحيله إليه، كان من الغريب بالنسبة للضباط أن يجدوها تسأل عن «يوسف» وترغب في زيارته، وعلى الرغم من أنه ممنوع عنه الزيارة فإن مركز والدها قد دفعهم إلى تلبية طلبها على الفور، جلست «نور» في مكتب أحد الضباط منتظرة قدوم «يوسف»، كان مكتبا فخما مريحا لا يناسب جو المكان.

لحظات ودخل أحد العساكر ومعه «يوسف»، نظرت له «نور» ونهضت من على الكرسي، انقبض قلبها عندما رأت «يوسف» مرتديا البدلة الحمراء، فك العسكري يد «يوسف» وتركه وخرج وأغلق الباب بالمفتاح من الخارج.

نظر «يوسف» إلى «نور» غير مصدق؛ فقد شعر بفرحة بالغة لرؤيتها، وابتسم ابتسامة هادئة لا تخلو من الحزن، أما «نور» فقد جرت مسرعة نحوه واحتضنته بشدة فاحتضنها ومسح على شعرها برفق.

- وحشتني أوي.

- انتي كمان وحشتيني أوي.

أمسكت «نور» بيده وجلس الاثنان على الأريكة بجانب بعضهما البعض، نظرت «نور» إلى شعر «يوسف»؛ فقد تمت إزالته بالكامل وهناك جروح بسيطة قريبا من شفتيه.

- مين عمل فيك كده؟ (كانت تتحدث وتمسح على فمه).

- ما تشغليش بالك، هما بس حبوا يتأكدوا إني مش ههرب تاني.. (كان يتحدث مبتسما ابتسامة حزينة هادئة كعادته) أما «نور» فقد كانت عيناها تلمعان وكأنها تحبس دموعها.. المهم انتي كويسة؟

نظرت له «نور» وأومأت برأسها سلبا ونزلت دموعها.

ضمها «يوسف»: «نور».. مالك يا حبيبتي؟

نظرت له «نور» وردت باندفاع: أنا بحبك أوي، مش عارفة أعيش، مش قادرة أتخيل إني قاعدة بره ما بعملش حاجة وانت خلاص هتموت.

نظر لها «يوسف» وقد فاجأته كلماتها؛ فهو لم يكن يتخيل أن يسمع هذه الكلمات منها بكل صراحة، حتى إنه وللحظة نسي كل ما يمر به وشعر بسعادة بالغة، فإن خسر الدنيا يكفيه أنه فاز بحبها.

صمتت برهة ثم استأنفت حديثها: أنا مش هسكت، أنا هجيبلك محامي وهخليه يطعن على الحكم.

- لا يا «نور».. لا ما تعمليش كده، أنا مش هقدر أعيش مستني الموت أكتر من كده، أنا عندي أموت دلوقتي أسهل.

- أنا بحبك يا «يوسف»، عارف يعني إيه بحبك؟ مش هقدر أسيبك تروح مني.

- لو بتحبيني بجد سيبيني أقضي الأسبوع اللي فاضل ده وأنا عارف إنه الأخير.. علشان خاطري، خليني أقضي الـ٧ أيام دول وأنا عارف إنك كويسة، مش هينفع تفضلي في الحالة دي.

- أنا ما ببقاش كويسة غير لما بفكر فيك.

- لا يا «نور»، مش هينفع، انتي لازم تنسي إنك قابلتيني في يوم من الأيام، انتي الحياة قدامك طويلة، وأنا عايزك تعيشيها زي ما انتي عايزة مش زي ما الناس تقولك، حاولي تقربي من «حازم» وتحبيه واعملي فرحك في أقرب وقت، ما تحسسينيش إني دمرت حياتك.

نظرت له «نور» ولم ترد.

- أنا بس عايز أطلب منك طلب أخير.

أومأت له «نور» برأسها ليتحدث.

- «ياسين» أخويا ساكن في المهندسين، هتلاقي عنوانه في الجمعية، عايزك توصليله الجواب، في أي وقت انتي عايزاه، المهم ما تنسيش.. دي آخر

حاجة أنا هاتعِبك فيها.

- أنا هروحله وهوديله الجواب وهاجي أزورك كل يوم.

- لا يا «نور»، خلاص، دي آخر مرة هنشوف بعض فيها، وزي ما اتفقنا أنا عايزك تنسيني خالص، ما تفكريش فيَّ وما تقريش أخباري، عيشي حياتك زي الأول قبل ما تقابليني.

همت «نور» بالرد عليه، لكن باب الغرفة فُتح ودخل الضابط: آنسة «نور» إحنا آسفين، بس كده كفاية.

نظرت إلى الضابط ثم إلى «يوسف» وكأنها لا تريده أن يذهب.

أومأ لها «يوسف» برأسه مبتسما وهمس: زي ما اتفقنا..

نهض «يوسف» ودخل العسكري ووضع الكلابشات في يديه مرة أخرى واصطحبه إلى الخارج. ظلت «نور» تنظر إليه حتى خرج وانطبعت في ذاكرتها آخر ابتسامة رأتها على وجهه قبل أن يذهب.

***

بمجرد أن عرف والد «نور» ووالدتها أنها زارت «يوسف»، أصابهما الغضب الشديد؛ فقد أكدا لها أن ذلك سيضر بسمعتها، وسيؤكد ما روَّج له الناس طوال مدة اختطافها بأنها تربطها بهذا المجرم علاقة.. ولأول مرة في حياتها أمرها والدها ألا تخرج دون إذنه.

أما «نور» فقد تجاهلت ذلك، وفي صباح اليوم التالي ذهبت لتنفذ آخر وصية لـ«يوسف».. وصلت إلى المهندسين حيث منزل «ياسين» فوجدت فيلا فخمة، ترجلت من السيارة واقتربت من الباب فوجدته مغلقا بقفل غليظ.

قضت «نور» دقائق أمام الباب لا تدري ماذا تفعل ونظرت حولها فوجدت بوابا يجلس أمام الفيلا المقابلة، ذهبت تتحدث إليه وسألته عن سكان الفيلا فأخبرها أنهم تركوها منذ يومين تقريبا.. أصيبت «نور» بيأس عميق.. ماذا تفعل؟ هل ضاع كل ما فعله «يوسف» في الأيام الماضية سدى؟ ركبت سيارتها وأوشكت على المغادرة، لكن استوقفها صوت البواب ينادي عليها.

البواب: آنسة.. يا آنسة.

- فيه حاجة؟

البواب: الناس اللي انتي بتسألي عليهم دول ليهم ابن أنا أعرف عنوانه لو عايزة تعرفيه.

أشرق وجه «نور» وأجابته بفرح: آه طبعا.. يا ريت.

***

وصلت «نور» إلى العنوان الذي أخبرها به البواب، عمارة فخمة في حي مصر الجديدة، صعدت إلى الدور العاشر، حيث يقطن «ياسين»، وطرقت على باب الشقة الوحيد الموجود في هذا الدور، لحظات وانفتح الباب لترى «نور» شابا في حوالي السابعة عشرة من عمره، وسيما، تشبه ملامحه ملامح «يوسف» إلى حد بعيد، تكاد تشعر فيه بروحه وشخصيته.

نظر «ياسين» إلى «نور» باستغراب.

- سلامو عليكوا.

- أهلا وسهلا.

- أنا جاية بخصوص «يوسف»..

بدا على وجه «ياسين» الصدمة ولم يرد فاستأنفت «نور» كلامها: «يوسف» أخوك.. ممكن أدخل؟

أومأ «ياسين» برأسه دون أن تذهب من على ملامحه آثار الصدمة: آه، اتفضلي.

***

جلست «نور» على أنتريه فخم في الصالون، ودخل «ياسين» وراءها وقال: لحظة واحدة أجيبلك حاجة تشربيها.

- لا لا.. مفيش داعي، يا ريت بس تتفضل تقعد علشان عايزاك في موضوع مهم.

جلس «ياسين» ثم قال: أنا عارفك، كنت بقرأ أخبارك في «الجورنال».. أنا آسف على اللي حصلك بسبب «يوسف».

- مش كل اللي بيتكتب في الجرايد صح، أنا معظم الوقت كنت قاعدة مع «يوسف» بإرادتي.

نظر لها «ياسين» باستغراب ولم يعلق، فاستأنفت «نور» حديثها قائلة: الجواب ده «يوسف» قال لي أوصلهولك.

أمسك «ياسين» بالجواب: ليَّ أنا؟

أومأت «نور» برأسها واستكملت: هو كمان بيطلب إنك تسامحه، وتعرف إن الظروف اضطرته لحاجات كتير، والباقي هتعرفه من الجواب.

نهضت «نور» بعد أن أنهت حديثها فقال لها «ياسين»: بس كده؟

- هو ده اللي طلب مني أقولهولك، وأنا خلصت المهمة ووصلتلك الرسالة.

- وهو عامل إيه دلوقتي؟

- كويس.. متماسك بالنسبة لأي حد في موقفه.

توجهت «نور» نحو الباب وتبعها «ياسين»، فتحت الباب وأوشكت على الخروج، لكنها وقفت لحظة ونظرت لـ«ياسين» قائلة: «يوسف» بيحبك أوي.. كل حاجة عملها في حياته كانت علشانك.

احمر وجه «ياسين» وبدا على وجهه التأثر.

خرجت «نور» ووقفت أمام باب المصعد واستوقفها «ياسين» قبل أن تركب: هو الحكم هيتنفذ إمتى؟

نظرت له «نور» ثم قالت: يوم الجمعة، قالتها بحزن وأغلقت باب

المصعد وذهبت تاركة لـ«ياسين» الكثير من الأفكار والأحزان ليعيش فيها.

***

ما أصعب أن تحيا تنتظر الموت، وما أبطأ الأيام والدقائق واللحظات التي تقضيها في هذا الانتظار، أسبوع تمر أيامه على «يوسف» بصعوبة كأنها لا تريد أن تنقضي، أسبوع تذكر فيه كل حياته الماضية، خاصة الشهر الأخير الذي قضاه مع «نور»، أسعد أيام حياته.

قبل الهروب من السجن لم يكن يخشى الموت قدر ما يخشى أن تتشوه صورته أمام أخيه، أما الآن فهو يخشى الموت، يخشاه كثيرا؛ لأنه سيبعده عن «نور».

طالما سأل «يوسف» نفسه: ما الحكمة من أن تعطيه الدنيا دائما أملا ثم تأخذه منه؟ لماذا تذيقه الحياة طعم الفرح الشديد قبل أن تحيله علقما؟

في صباح يوم الثلاثاء، استيقظ «يوسف» على صوت العسكري ينادي عليه بقوة ويأمره بالخروج لمقابلة محاميه.

ذهب معه ووصل إلى مكان الزيارة فوجد شخصا بدينا في حوالي الخمسين من العمر، أخبره بأنه المحامي الموكل للدفاع عنه وأنه قد قدم طعنا على الحكم، سأله «يوسف» عن هوية من وكله فرفض الإفصاح عنها، عاد إلى زنزانته يفكر في «نور» التي لم تستطع أن تنفذ وعدها له، واختارت أن تطيل عذابه، من غيرها سيوكل له محاميا؟ أيكون «ياسين» من قام بذلك؟ ما أدراه أنها استطاعت حتى الوصول إليه؟ وحتى إذا وصلت إليه وأخبرته بكل شيء وقرأ جوابه، فهو لم يأتِ ليزوره ولم يحاول السؤال عنه وهو يعرف أن هذه الأيام ربما تكون آخر أيام حياته.. إذًا هي «نور»، لا يُعقل أن يكون أحد غيرها.

***

بعد فترة بدأ ضيق «حازم» يزيد من إهمال «نور» له وصارحها بذلك وبأن خطوبتهما على وشك الانهيار، سكتت «نور» ولم تعلق، لكن والدتها لم تسمح لهذه المهزلة - من وجهة نظرها - أن تستمر.

صعدت إلى غرفة «نور» ليلا قبل أن تنام لتتحدث إليها، قالت: انتي ناوية تعملي إيه مع «حازم»؟

- هعمل إيه يعني يا ماما، والنبي سيبيني أحسن أنا تعبانة وعايزة أنام.

(كانت «نور» تتحدث وهي تغلق شباك غرفتها وتتوجه نحو السرير لتنام).

أمسكت والدتها بذراعها وقالت: لأ يا «نور» مش هتنامي، كفاية بقى، فوقي وكلميني شويّه.

نظرت «نور» لأمها متعجبة من أسلوبها العنيف: لحد إمتى هتفضلي في الحالة دي؟ مستقبلك هيدمر و«حازم» هيسيبك وانتي قاعدة حزينة على واحد مجرم، انتي اتجننتي ولا إيه؟

«نور» (ردت بعصبية): المجرم ده أحسن من «حازم» مليون مرة.

- خلاص اتجوزيه يا «نور»، روحي هربيه من السجن واتجوزيه، ما انتي خلاص اتجننتي.. صمتت الأم برهة ثم تحدثت بصوت أكثر انخفاضا وانكسارا: انتي ما بقيتيش بنتي بتاعة زمان، بنتي اللي قعدت شهر بين الحياة والموت قلقانة عليها وبتمنى إنها ترجع.. كنت خايفة يموتك، أتاريه عمل فيكي اللي أكتر من الموت..

كانت «نور» تنظر إلى أمها وتتابعها بشيء من الندم؛ فهي لا تحب أن ترى أمها في مثل هذا الانكسار، إنها حتى ليست لديها كلام لترد به.

اقتربت والدتها منها وأجلستها على السرير ولفت ذراعها حولها ثم قالت: يا حبيبتي أنا عايزة مصلحتك، «حازم» بيحبك.. بيحبك أوي.. ده مستعد يعمل أي حاجة علشانك بس توافقي إن الفرح يتعمل في أقرب وقت..

مسحت والدتها على شعرها واستأنفت: على العموم فكري، ولو وافقتي الفرح هيبقى الجمعة الجاية وهعملهولك أحلى من اللي فات مليون مرة.

***

قضت «نور» ليلتها تفكر، وفي الصباح عرفت بخبر قبول الطعن على قضية «يوسف»، أشعرها هذا القرار بشيء من الراحة جعلها أكثر قدرة على التعامل مع عائلتها ومع استمرار حديث والدتها وتكرار طلبها بإقامة الفرح يوم الجمعة، خاصة بعد أن ازداد الكلام عن «نور»، وزيادة تشويه سمعة العائلة، وجدت «نور» نفسها مضطرة إلى الموافقة، كانت كالمغيَّبة، مسلوبة الإرادة، لا تقاوم ولا تعترض، فقط تريد أن تتخلص من لوم أمها وطلباتها المتكررة لإنقاذ سمعتها التي أصبحت مشاعا للجميع، فكل يوم تخرج شائعة عن سبب هروب «نور» ومع من هربت، حتى إن البعض شكك في أن يكون «يوسف» هو من اختطفها، وأكدوا أنه مظلوم وتم اتهامه زورا في القضية للتغطية على تصرفات ابنة رجل الأعمال المدللة، أمام كل ذلك لم تستطع «نور» الصمود، وبالفعل أقيم الفرح يوم الجمعة، فرح ضخم، أضخم مما سبقه، تمنت أن يظهر «يوسف» ويخطفها مرة أخرى، كانت تبحث بين وجوه الحاضرين عنه، لكنه للأسف لم يكن موجودا هذه المرة.

الفصل الثالث عشر

لقاء طال انتظاره

شهور طويلة وأيام مضت ولم يسمع «يوسف» أي أخبار عن «نور» أو عن أخيه، فقط محاميه هو من يزوره باستمرار ويخبره عن أحوال سير القضية.
كان المحامي يعتقد أن موقفهم في القضية قوي، لكن بشرط أن يوافق «يوسف» على عدة أشياء، أولها: أن يتم عرضه على الطبيب الشرعي لبيان ما حدث له من تعذيب على أيدي عمه وزوجته، وثانيا، وهذا الأهم: أن يشهد أحد ممن كانوا موجودين بالمنزل على أن عمه هو من أصابه بهذه الجروح.
في البداية، رفض «يوسف» فكرة العرض على الطبيب الشرعي هذه؛ فهو لا يريد أن يظهر بمظهر الضعيف أمام أحد، لكن بعد فترة أقنعه المحامي بأن هذا هو الأمل الوحيد في القضية، لكن حتى بعد موافقة «يوسف» على ذلك وبعد أن أثبت تقرير الطبيب الشرعي أن «يوسف» قد تعرض للتعذيب باستمرار ودون رحمة، لا يمكنه أن يثبت تلك التهمة على عمه بما يخفف من الحكم الصادر ضده؛ فأولاد عمه وأخوه «ياسين» هم فقط من شهدوا على ذلك، وأي منهم لن يقف بجانبه الآن، إن أخاه لم يفكر حتى الآن في زيارته أو السؤال عنه، وبالتالي فهو لا ينتظر منه أن يساعده.
أيام وانعقدت الجلسة في موعدها المحدد، وجلس «يوسف» في القفص منتظرا أن يسمع حكم الإعدام للمرة الثانية، مشغولا بالبحث عن «نور» و«ياسين» علهما يكونا بين الحاضرين، لكنه لم يجد أحدا.
أجرى المحامي مرافعته المتوقعة وقدم تقرير الطبيب الشرعي وجاء وقت استدعاء الشهود، لم يكن «يوسف» يعرف حتى هذه اللحظة من سيشهد معه وهل هناك شهود أصلا أم لا..
طلب القاضي استدعاء الشاهدة الأولى والوحيدة: رحاب يحيى الصاوي،

ابنة عمه، التي شهدت تعذيب «يوسف» وشهدت أيضا مقتل أبيها، أكدت «رحاب» كل كلمة قالها «يوسف»، حكت عن تعذيب والدها له وعن عمله الذي بدأ فيه منذ نعومة أظافره ومضايقة أبيها له حتى بعد أن ترك المنزل، كان كلامها يبدو صادما بالنسبة لـ«يوسف»؛ فهو لم يتوقع أن تقف بجانبه بعد أن قتل أباها وأن تحاول إنقاذه من الموت؛ فقد تخيل أنها ترغب في أن تقتله هي بيديها بدلا من أن تنقذه، أكملت «رحاب» شهادتها وحكت كل شيء وتم تأجيل الجلسة شهرا كاملا للنطق بالحكم.

انتهت الجلسة دون أن يلاحظ «يوسف» أن أخاه «ياسين» الذي يحلم برؤيته كان جالسا على بعد عدة خطوات منه، لكنه لم تكن لديه الشجاعة الكافية ليذهب ويتحدث إلى «يوسف»، فقط اكتفى بالنظر إليه من بعيد متأملا ملامحه التي لم تختلف كثيرا عن الماضي، في لحظات شعر أنه يريد أن يتحدث إليه، لكنه تراجع دون أن يعرف لماذا.. فقط شعور غريب بالخوف تملكه وجعله يتراجع.

***

عاد «يوسف» إلى زنزانته بأحاسيس متضاربة؛ فمن المفروض أن يشعر بالفرح لأن موقفه في القضية قد تحسن، إلا أنه في هذه اللحظات بالذات تأكد لديه شعور الوحدة وأنه فقد كل شيء حتى «نور»، وتأكد لديه أنها لم يدفعها لتوكيل هذا المحامي له إلا عطفها عليه، هذا إن كانت هي من وكله بالأساس؛ لذلك قرر أنه سيرفض أن يستكمل هذا المحامي دفاعه عنه إلا بعد أن يخبره بهوية من وكله.

وفي أول مقابلة بينه وبين المحامي سأله «يوسف» عن هوية موكله، وعندما رفض الإفصاح طالبه بأن يترك القضية وأنهى المقابلة وعاد لمحبسه، قضى أياما طويلة لا يزوره أي شخص، حتى المحامي انقطعت زياراته لفترة طويلة عاش «يوسف» خلالها مكتئبا، إلى أن استيقظ يوما على صوت العسكري يخبره بأن لديه زيارة وأن الزائرة فتاة.

خفق قلب «يوسف» بشدة؛ فقد تكون «نور» هي من أتت لزيارته، شعر بفرحة وخوف، وشعر أن الدقائق من الزنزانة إلى مكان الزيارة قد تحولت لساعات، فكر أنه إذا رأى «نور» بعد لحظات سيخبرها بأن تنسى كل ما قاله لها وأن تظل بجانبه؛ فهو من دونها كالتائه، دخل إلى الغرفة ليجد ابنة عمه في انتظاره، شعر بصدمة بالغة، جعلت عقله يتوقف عن التفكير للحظات، حتى إنه بدا شارد الذهن أمامها، لكنه استدرك الموقف وقال: «رحاب».. عاملة إيه؟

- الحمد لله يا «يوسف»، انت عامل إيه؟

«يوسف» (قال وهو يجلس): الحمد لله.

سادت لحظة صمت قطعتها «رحاب» قائلة: المحامي بلغني إنك عايزه يسيب القضية.

صمت «يوسف» برهة ثم قال: أنا مش هقدر أخلي حد يترافع عني وأنا مش عارف مين وكله.

- هو كان عايز ييجي يقولك بنفسه، بس خاف ما ترضاش تقابله.
- يعني هو قالك مين؟
- أخوك.. قال لي إن «ياسين» أخوك هو اللي وكله.
فوجئ «يوسف» وعاوده هذا الشعور المزدوج بالفرح والحزن مرة أخرى: الفرح لأن أخاه قد تذكره، عله أيضا قد قرأ الجواب وقدر الظروف التي مر بها.. والحزن لأنه تيقن بذلك أن «نور» قد نسيته تماما، وربما تكون قد تزوجت الآن كما طلب منها؛ فهو على الرغم من تأكده أن فراقهما محتوم، لكنه لم يتصور أن يكون بهذه السرعة..
خرج «يوسف» عن صمته وقال: وليه «ياسين» ما جاش قال لي بنفسه؟
صمتت «رحاب» لحظة ثم قالت: المحامي قال لي إنه عنده ظروف وإنه مش هيقدر يجيلك دلوقتي.
نظر «يوسف» إليها ولم يرد، فاستأنفت حديثها قائلة: على العموم هو أكيد هييجي يزورك في أقرب وقت.
أومأ «يوسف» برأسه ورد قائلا: شكرا يا «رحاب».
- على إيه؟
- على كل حاجة، على شهادتك في المحكمة وعلى زيارتك النهارده.. على كل حاجة.
- أنا كان لازم أعمل كده.. ضميري ما كانش هيرتاح لو سيبتك تتعدم ظلم.. بابا ما ظلمكش انت بس، ظلم ناس كتير وأنا من ضمنهم.
- أنا آسف.. ما كنتش أعرف إن النهاية هتبقى كده.
- كان لازم تبقى كده.. اللي حصل مش ذنبك.

***

شعر «يوسف» بالارتياح لكلمات ابنة عمه وضاع جزء من إحساس الذنب الذي كان يشعر به تجاهها، لكن شعورا آخر أخذ يراوده في الأيام التالية وحتى موعد الجلسة، شعور بالوحدة، الوحدة التي كان قد نسيها بعد أن عرف «نور»، عادت لتصبح الصحبة الوحيدة له في الحياة، وما أقلقه أكثر أن أخاه وحتى اقتراب موعد الجلسة لم يأتِ ليراه، إنه حتى لم يفكر في أن يسأل عنه، شعر «يوسف» بشيء من الضيق لهذا الأمر، لكنه أخذ يخترع لأخيه المبررات؛ فتارة يقنع نفسه بأنه ربما يكون مريضا، ومرة أخرى قد يكون مشغولا بالدراسة، وهكذا... كان يرى في هذه المبررات منقذا له من تفسير آخر كان يعرفه في قرارة نفسه، لكنه يرفض أن يعترف به، وهو أن أخاه يخجل منه، ربما حاول مساعدته فقط ردا على ما فعله له في الماضي وليس حبا له أو رغبة في إنقاذه؛ فهو يريد فقط أن يرضي ضميره.
عاش «يوسف» مع هذه الأفكار حتى موعد الجلسة التالية، لم يكن مهتما بسماع الحكم قدر ما كان مهتما برؤية أخيه، ظلت عيناه حائرتين تقلبان وجوه الحاضرين، لكن دون فائدة، لم يكن له أي أثر؛ ذلك لأن أخاه لم يحضر هذه الجلسة من الأساس لظروف قد تكشف الأيام عنها، لكنه لم يحضر..

اقترب المحامي من «يوسف» وقال له: خلاص اجمد.. الحكم بعد المداولة.
أومأ «يوسف» برأسه بقلق، لحظات وخرج القضاة، كانت اللحظات تفوت دقائق والدقائق ساعات، وقلب «يوسف» يخفق بقوة.. خرجت كلمات القاضي بطيئة وثقيلة:

«حكمت المحكمة حضوريا على المتهم يوسف صالح الصاوي بالسجن ١٠ سنوات مع الشغل والنفاذ.. رفعت الجلسة».

كان إحساسه كمن غادر الحياة وعاد إليها مرة أخرى، اقترب منه المحامي مهنئا وقال له إنه سيتم ترحيله أولا للإصلاحية حتى يتم ٢١ عاما ثم

إلى السجن، لم يكن «يوسف» يهتم بالمكان الذي سيقضي فيه العقوبة، المهم أن الله قد أعطاه فرصة ثانية، فرصة لكل شيء ليصلح ما فعله من أخطاء، ليرى أخاه، ليرى «نور» أيضا لمرة أخرى، إن الأمل ما زال موجودا لديه بأن يحقق كل هذه الأمنيات.

***

لم تكن حياة الإصلاحية غريبة على «يوسف»؛ فقد قضى فيها من قبل ٣ سنوات، لكن ما زادها صعوبة هو انتظاره الذي ليس له نهاية، انتظاره لشخص يسأل عنه، انتظاره لأخيه الذي لم يكن يفعل شيئا سوى أنه يرسل له طعاما كل أسبوعين، طعاما فاخرا يصل إلى «يوسف» في سجنه فيشعره بالمهانة وليس الشبع، يشعره بأن قيمته هي قيمة وجبة الطعام التي ترسَل إليه ليس إلا.. إنه حتى لا يأتي ليوصلها إليه بنفسه، بل يرسلها مع أحد العاملين عنده.

مرت شهور والمعاملة لا تتغير، أنواع فاخرة من الطعام تصل ولا تؤكل، فقط تزيد من ضيقه وألمه، أحيانا تمنى أن تعود به الأيام وينفَّذ فيه حكم الإعدام بدلا من أن يفاجَأ بهذه المعاملة من أخيه الذي ضحى بكل شيء من أجله.

كان على «يوسف» أن يتخذ قرارا ليرد به على هذه الإهانة من أخيه، وبالفعل في موعد الزيارة التالية أبلغ إدارة الإصلاحية بأن تعيد الطعام من حيث أتى، وكرر ذلك أكثر من مرة، فما يحتاجه ليس الطعام، بل الأخوة، الأمان الذي أعطاه لأخيه صغيرا ولم يرد له وهو في أشد الاحتياج إليه.

على الجانب الآخر كان «ياسين» يعاني صراعا نفسيا رهيبا؛ فهو منذ أن عرف أبواه أنه قد ذهب لأخيه في المحكمة وأنه وكَّل محاميا للدفاع عنه أكدا عليه أن هذا لا يجب أن يتكرر مرة أخرى حتى لا يضر بسمعتهما؛ فهما بالتأكيد لا يريدان لأحد أن يرى «ياسين» في هذه الأماكن أو أن يعرف أن هذا الشخص المجرم هو أخو «ياسين».. الذي تربى في بيئة تفرض عليه أن ينتقي من يعرفهم وأن يحسب خطواته قبل أن يخطوها، «ياسين» المهندس المستقبلي الذي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكتشف الناس أنه ينتسب لشخص في وضع «يوسف».

أصبح هذا هو الموقف إذًا.. إما أن ينجرف مع مشاعره ويذهب لأخيه ويعصي من رباه وأكرماه حتى أصبح في هذا الوضع، أو يكتفي بهذه المعاملة السطحية مع أخيه غير عابئ بما يمكن أن تترك في نفسه من آثار سلبية.

وبعد أن امتنع «يوسف» عن تسلم زياراته بدأت حيرة «ياسين» وإحساسه بالذنب يزدادان، وأصبح في مفترق طرق وعليه أن يختار، لكن كيف؟ وإلى أي شيء يستسلم؟ إلى ما يأمره به قلبه أم عقله؟

***

لم يكد «يوسف» يفرغ من عمله المعتاد في الإصلاحية حتى نادى عليه العسكري وأخبره أن لديه زيارة، طلب «يوسف» منه الانتظار حتى يغتسل ويغير ملابسه المتسخة بالتراب والأسمنت نتيجة عمله طوال النهار، لكن العسكري لم يمهله الفرصة وصمم على اصطحابه في الحال.

في الطريق منع «يوسف» نفسه من التفكير في هوية الزائر؛ فهو لم يعد يريد أن يرى أحدا، لا أخوه ولا غيره، فقد توقف عن الأحلام وعاد إلى أرض الواقع أخيرا، وعاهد نفسه ألا يشتاق لأحد؛ فقد أيقن أنه بالنسبة للجميع غير موجود.. لم يكن يعرف أن حلمه الذي طالما حلم به سيتحقق بعد ثوانٍ معدودة.

دخل «يوسف» إلى غرفة الزيارة ليجد شابا في حوالي الـ١٧ من عمره، عرفه من أول نظرة، على الرغم من أنه لم يره منذ سنوات كثيرة، إنه «ياسين» أخوه.. لم تتغير ملامحه كثيرا، فقط تغير مظهره وبدا أكثر نضجا وشبابا، استمر الاثنان في التحديق لبعضهما لثوانٍ وبدا في نظرة «يوسف» شيء من اللوم، كأن ما حدث الأيام الماضية ترك في نفسه جرحا من الصعب أن يزول، وبدا ذلك على ملامحه..

قطع «ياسين» هذا الصمت قائلا بصوت هادئ: ازيك يا «يوسف».

نظر له «يوسف» بشيء من اللوم وصمت برهة ثم قال بانكسار: كويس إنك لسه فاكر اسمي.

دمعت عينا «ياسين» ولم يستطع الرد.

شعر «يوسف» بالندم مما قاله عندما رأى حزن أخيه واستأنف حديثه قائلا: انت عامل إيه؟

- أنا كنت تعبان ومش عارف أعمل إيه.. لكن دلوقتي بقيت كويس.

دمعت عينا «يوسف» عندما ارتمى أخوه في حضنه وهو يقول: انت وحشتني.. وحشتني أوي.

احتضنه «يوسف» بشدة وشعر في هذه اللحظة بأنهما قد عادا طفلين صغيرين مرة أخرى لا يفارقان بعضهما، تذكر وقت أن كان «ياسين» لا ينام إلا في حضنه ولا يسير إلا ويدهما متشابكتان كيدٍ واحدة، عاد إلى كل منهما إحساس الأمان الذي لم يشعرا به إلا وهما بجوار بعضهما البعض ولم يعوضهما عنه مال أو صحبة.

ربت «يوسف» على ظهره وقال له: انت كمان وحشتني أوي.. كنت خايف تكون نسيتني أو كرهتني.

- أنا آسف.. كان لازم أبقى جنبك طول الأيام اللي فاتت، بس غصب عني والله.

نظر له «يوسف» وأجلسه وهو يقول: ولا يهمك، المهم إني شوفتك.. ما تفكرش في اللي فات.

مسح «يوسف» وجه أخيه من الدموع وأخذ ينفض التراب من على ملابسه: شفت.. هدومك كلها بقت تراب..

- ولا يهمك.. المهم انت عامل إيه؟

- أنا كويس الحمد لله.

- أنا من ساعة ما «نور» جابتلي الجواب وأنا بلوم نفسي على اللحظات اللي ما وقفتش فيها جنبك.

- انسى اللي فات يا «ياسين».. انت عملت اللي تقدر عليه، واديني أهه، على الأقل لسه عايش (كان «يوسف» يتحدث وعلى شفتيه ابتسامته الحزينة التي لا تفارقه).

المهم انت إيه أخبارك، دخلت كلية إيه؟

- هندسة.. زي ما انت كنت عايز، لما رحت أقدم ورقي كنت حاسس إنك معايا.

ابتسم «يوسف»: ده أحلى خبر سمعته من سنين، شد حيلك في الدراسة.

أومأ «ياسين» برأسه مبتسما.

- صحيح.. ما سمعتش حاجة عن «نور»؟

- سمعت إنها سافرت.

نظر له «يوسف» وأومأ برأسه حزينا.

- انت عايز منها حاجة، أنا ممكن أحاول أوصلها؟

- لا لا لا، أنا بس كنت بسأل.

- انت قادر تعيش هنا؟ يعني مش محتاج حاجة؟

- شكرا يا «ياسين»، أنا واخد على كده، والحالة هنا مش وحشة أوي، كلها سنة وينقلوني سجن بجد.. ربنا يستر.

- أنا مش عارف ازاي هتقضي عشر سنين من عمرك في واحد ما يسواش زي ده..

- أنا قتلت يا «ياسين»، وده أقل عقاب ممكن آخده.

- انت قتلته علشان تحميني، زي ما عملت كل حاجة قبل كده علشاني، المفروض كنت أنا اللي أبقى مكانك هنا، كنت أنا اللي المفروض أقتله.

- ساعتها كنت هتضيع كل حاجة أنا عملتها، أنا لما خليتك تسيبني ما كنتش فرحان، لكن كنت مطمن إنك هتبقى أحسن من غيري، لو كنت انت اللي قتلته كان هيبقى عذابي السنين اللي فاتت راح على الفاضي.

نظر له «ياسين» وقال: أنا من ساعة ما سيبتني وأنا بعمل كل حاجة انت وصيتني بيها، شايف دي؟ (اخرج السلسلة التي أعطاها له «يوسف» يوم أن ترك الجمعية)، أنا ما قلعتهاش من ساعة ما انت لبستهالي، فضلت طول عمري أفتكر اللحظة دي حتى لما كنت بقرأ عن اللي انت بتعمله في الجرايد كنت بحاول أمحي الصورة دي من دماغي وأفتكر صورتك وأنا حاضنك آخر مرة.

نظر له «يوسف» وقال: أنا ما اتغيرتش يا «ياسين».

- أنا عارف.. ولا عمرك هتتغير، هتفضل طول عمرك ضهري، الشخص اللي بينقذني من غير ما يقول أو يفكر في نفسه.

دخل العسكري إلى الغرفة وصاح بصوت عالٍ وهو يطرق على الباب: الزيارة انتهت يلا.

«ياسين» (كان يتحدث بسرعة): أنا هبقى أزورك تاني، ما تقلقش..

نهض الاثنان ورد عيه «يوسف» وهو يحتضنه: في الوقت اللي تبقى فاضي فيه، ما تعطلش نفسك.

- أنا كل أسبوعين في معاد الزيارة هبقى عندك هنا..

أمسك العسكري بيد «يوسف» واجتذبه من بين ذراعي «ياسين»..

استكمل «يوسف» حديثه وهو يسير نحو الباب: وأنا هستناك، خلي بالك من نفسك.

- حاضر..

صحيح أنا جايبلك حاجات قالولي بره إنهم هيوصلوهالك.

أومأ «يوسف» برأسه مبتسما وودعه من بعيد وظل «ياسين» يتابعه بعينيه حتى ابتعد.

***

لم يحضر «ياسين» لأخيه طعاما هذه المرة، فقط أحضر الشيء الوحيد الذي يحتاجه «يوسف» في الفترة الحالية، فرشاة وألوان ولوحات، ثلاثة أشياء بسيطة حُرم «يوسف» منها منذ زمن طويل؛ لذلك وبمجرد أن رأى ما أحضره أخوه نظر إلى هذه الأشياء بقلق؛ فقد خشي أن يمسكها ولا يقدر على استخدامها؛ فهو لم يحاول أن يرسم منذ فترة طويلة، أمسك بالفرشاة وخط بها أول خط في الورقة، شعر أنه يتعلم الرسم للمرة الأولى، سمع صوت توجيهات أبيه له وهو يرسم كأنها تتردد في أذنيه تحثه على التركيز، تنبهه عند الخطأ، أن السعادة التي يشعر بها حاليا أكدت له أن حياته مرتبطة بهذه الفرشاة، لم يكن مقدرا له أن يفعل شيئا آخر غير الرسم، لكن ما فرضته الظروف كان غير ذلك.

لم يستغرق «يوسف» في التفكير في الماضي؛ فقد أضحى يفكر في المستقبل الآن، كان يقضي ساعات طوالا في الرسم، رسم عن كل شيء، كانت تلفت نظره في الإصلاحية أشياء صغيرة جدا وكان يحتفظ برسوماته في دفتر لا يراه الجميع إلا وينبهر، كان موهوبا حقا وساعدته موهبته على تخطي صعاب شتى داخل هذا المكان فلم يكن شيء يهون عليه هذه الظروف إلا الرسم وزيارات أخيه له.

فزيارات «ياسين» له لم تنقطع، بل ازدادت مع مرور الوقت ومع نقله إلى السجن زادت الزيارات أكثر، وسبَّب هذا لـ«ياسين» مشاكل لا حصر لها؛ فبمجرد أن عرف والداه بهذه الزيارات تغيرت معاملتهما له، وتدريجيا كادت المعاملة تنقطع بينه وبينهما فشعر بأنه غريب وسط أناس قضى معهم وقتا طويلا ولم يكن يتوقع منهم ذلك، وزادت الأمور تعقيدا عندما صارحته والدته بأنهما ينويان السفر لأمريكا وأنهما سيبيعان كل ممتلكاتهما في مصر ولن يتركا له سوى هذه الشقة وسيكون هو الملزم بدفع إيجارها، فقد سئما من الحياة في مصر، كما أن أقاربهما جميعا

يعيشون بالخارج وهم لا يرون سببا لكي يستمرا في حياتهما هنا.

أثر هذا الكلام في «ياسين» كثيرا؛ فقد شعر أنهما يتخليان عنه لمجرد أنه صمم على الوقوف بجانب أخيه، كان يشعر أن والدته مغلوب على أمرها؛ فهذا ترتيب أبيه واقتراحه، لم يدرِ «ياسين» ماذا يفعل؛ فهو لم يكن أمامه حل سوى القبول بالأمر الواقع، خاصة أنهما لا يستشيرانه في الأمر، بل يطلعانه على قرارهما.

أيام وودعهما «ياسين» كما ودع كثيرا من قبلهم، شعر بمرارة الفراق مرة أخرى، لكنه قد اعتاد على ذلك، كما أنه قد كبر بما فيه الكفاية؛ فهذا عامه الجامعي الأخير وعليه أن يبدأ في الاعتماد على نفسه، بحث «ياسين» عن عمل إلى جانب دراسته وكان العائد ينفقه عليه وعلى أخيه؛ فـ«يوسف» يحتاجه الآن كما كان «ياسين» يحتاجه في الماضي وقد اتخذ قراره بألا يتخلى عنه أبدا مهما ضاقت به الحياة ومهما ساءت ظروفه.

***

الفصل الرابع عشر

حياة جديدة

استيقظ «يوسف» نشيطا سعيدا، بدأ يجهز متعلقاته وينظف ملابسه، لم يكن هناك من هو أسعد منه على هذه الأرض في تلك اللحظة؛ فها هو بعد ٧ سنوات يقضي آخر يوم له في السجن؛ فقد ساعدته سلوكياته الحسنة بالداخل وعمله المتواصل في تخفيف الحكم.

أمسك بدفتر رسوماته وقبل أن يضعه في حقيبته فتحه وأخذ ينظر إليه، لقد امتلأ برسومات ستظل تذكره دائما بالأيام التي قضاها هنا، ستذكره بماضيه وحاضره، وعلّها ستصاحبه في مستقبله الذي لا يعرف كيف ستكون ملامحه حتى الآن، اقترب من الشباك الصغير الموجود بالغرفة ونظر إلى شعاع الشمس الداخل منه، لطالما أحزنه النظر إلى هذا الشعاع في السنوات الماضية، كان يشعره بأنه حبيس مقيد، أما اليوم فهو يشعره بالأمل وكأنه يغريه ويذكره بالدقائق المتبقية له في هذا المكان.

أوشك على وضع الدفتر في الحقيبة، لكن سقطت منه رسمة جميلة محكمة، تصور وجه «نور» بكل تفاصيله، وعلى وجهها ابتسامتها المعتادة، وفي عينيها لومها المستمر، نظر للصورة بتأثر وطبّقها نصفين ووضعها بين صفحات الدفتر كأنه يريد أن يخبئها بعيدا عن عينيه حتى يمنع نفسه عن تذكر الماضي..

أغلق حقيبته والتفت على صوت العسكري ينادي عليه ويأمره بالخروج. سار معه «يوسف» حتى باب السجن، كانت كل خطوة تذكره بيومه الأول هنا، ضيقه وحزنه، إحساسه ببطء الأيام وأنها لن تنتهي.

انفتح الباب ليرى الشارع باتساعه وهوائه الطلق، شعر بأنه يريد أن ينطلق، يجري في هذا الشارع حتى نهايته، لكنه في الحقيقة لم يستطع؛ فقد تسمر مكانه كالطير الذي من فرط تقييده فقد القدرة على الطيران.. هذا هو حاله الآن، أشعره الشارع بالخوف وكأنه طفل لا يستطيع السير وحده يحتاج من يشجعه على أن يخطو الخطوات الأولى.

نزل «ياسين» من سيارته التي كان ينتظره بها منذ ساعات، احتضنه باشتياق وأخذ منه الحقيبة، عبرا الشارع، ركبا السيارة، وانطلقا معا.
طوال الطريق تعلق نظر «يوسف» بالشباك الموجود إلى جواره، نظر إلى كل شيء يمر بجانبه، إلى البشر والحجر، كان كمن يرى الدنيا للمرة الأولى، وما إن وصل القاهرة حتى وجد أن أشياء كثيرة قد تغيرت: الشوارع، المحلات، الناس.. كل شيء يبدو مختلفا حوله، لفت نظر «ياسين» القلق المرسوم على وجه أخيه فقال له: مالك يا «يوسف»؟
استدار «يوسف» ونظر إليه قائلا: مفيش.. بس الدنيا بقت زحمة أوي.
رد «ياسين» مبتسما: ما هي طول عمرها زحمة، انت بس علشان بقالك كتير قاعد في الصحرا، بكرة تاخد على كده.
ابتسم «يوسف» وصمت برهة ثم قال: هو إحنا رايحين على فين؟
- على شقتي في مصر الجديدة.
أومأ «يوسف» برأسه وعاد انجذابه نحو الشوارع مرة أخرى فأخذ يتأملها حتى وصل.
توقف «ياسين» بالسيارة ونزل الاثنان، نظر «يوسف» إلى العمارة، كانت مرتفعة للغاية وفخمة جدا، انتبه على يد البواب تأخذ منه الحقائب.. وقف «يوسف» صامتا لفترة في الوقت الذي كان أخوه يغلق السيارة.
- يلا يا «يوسف».
أومأ «يوسف» برأسه ودخلا معا متوجهين إلى الشقة.

***

كان انبهار «يوسف» بالشقة يمنعه من الكلام؛ فعيناه حائرتان تنظران إلى كل جزء في المكان؛ فهو لم يعتّد أن يعيش في منزل كهذا ولم يتصور ذلك قط.

- نوَّرت يا «يوسف».

ابتسم «يوسف»: متشكر يا «ياسين»، أنا مش عارف من غيرك كنت هعمل إيه.

- ما تقولش كده، أنا هحضرلك الحمام وفيه لبس جديد هتلاقيه على السرير جوه، خد حمام وتعالى علشان نتعشى، انت ما كلتش من الصبح.

دخل «يوسف» إلى غرفته، كانت غرفة كبيرة بها حمام ضخم، ساعد «يوسف» على الاسترخاء؛ فهو منذ سنوات لم يشعر براحة كهذه، كان كمن علق بداخل حلم جميل لا يريده أن ينتهي.

انتهى من الاستحمام وحلق ذقنه، أثناء ذلك تحسس الجرح العميق على خده، فخرج من الحلم وتذكر الماضي، إن هذا الجرح هو ما يربطه بالماضي الآن بعد أن قُطعت كل صلاته به.

ابتعد «يوسف» عن المرآة ليتجنب أي ذكريات سيئة قد تحملها إليه، ارتدى ملابسه وخرج ليجد أخاه قد جهز له عشاء فاخرا.

جلس الاثنان على المائدة وقال «يوسف» وهو مصدوم: إيه ده؟ مين هياكل كل ده؟

- انت، أنا عايزك تاكل وتشبع، علشان أوريك حاجة مهمة قبل ما تنام.

- حاجة إيه؟

- كل بس وبعد كده هتعرف.

فرغ «يوسف» من طعامه ودخل إلى غرفته وتبعه «ياسين»، كان ممسكا ببعض المجلات في يده.

- إيه ده؟

- افتحهم وانت تعرف.

أمسك «يوسف» المجلات وأخذ يقلب فيها إلى أن وجد صورة «نور» وتحتها مقال كبير.

- دي «نور».. هي اللي كاتبة الكلام ده؟

- آه.. كل الكلام ده عنك.

- عني أنا (كان يتحدث وملامحه تنم عن الصدمة والاستغراب)؟

نظر «يوسف» إلى الكلام وبدا عاجزا وشعر بالضيق؛ فقد كان محرجا منه أنه لا يعرف ما المكتوب.

- هي كاتبة إيه؟ (قالها «يوسف» محرجا).

جلس «ياسين» بجانبه، ثم قال: حاكية كل حاجة حصلت من ساعة ما خطفتها لحد ما رجعت بيتها.. بس إيه يا عم ده؟ أنا ما كنتش أعرف إنك جامد أوي كده (كان «ياسين» يتحدث وهو يبتسم ويغمز بعينه).

ابتسم «يوسف» محرجا ثم قال بتردد: ليه؟ هي كاتبة إيه؟

- أقراهولك؟

نظر «يوسف» إلى المقال وإلى المقالات الموجودة في المجلات الأخرى، ثم قال لأخيه: لأ بعدين، انت شكلك تعبان، وانا كمان.. قوم ارتاح وبعدين نبقى نقراهم.

ماشي يا روميو، تصبح على خير.

ابتسم «يوسف» ورد: وانت من أهله.

وضع «يوسف» المجلات في أحد الأدراج بجانبه وانتظر حتى خرج أخوه ثم أخرج إحدى المجلات بسرعة وأخذ ينظر إلى صورة «نور» حتى غلبه النوم.

***

في الصباح استيقظ «يوسف» مفزوعا على صوت أخيه يدعوه لتناول الفطور، وضع المجلة سريعا في الدرج وارتدى ملابسه وخرج.
جلس الاثنان معا وتناولا الإفطار ثم أخبره «ياسين» بأنه سيذهب إلى عمله وسيعود ظهرا، فودعه «يوسف» وقضى باقي اليوم لا يدري ماذا يفعل، شاهد التليفزيون بضع ساعات، رسم، تجول في الشقة، نظر من البلكونة حتى أصابه الملل، وعندما عاد أخوه من الشغل قضيا باقي اليوم في الحديث ومشاهدة التليفزيون مرة أخرى ثم النوم، ولم تختلف الأيام التالية عن ذلك كثيرا.. كلها نفس الروتين اليومي المعتاد؛ فعلى الرغم من أن أخاه يحسن معاملته فإنه قد سئم الحياة دون هدف، فانتظر في يوم حتى فرغ أخوه من عمله ثم قال له: «ياسين» أنا عايز أكلمك في موضوع، أنا عايز أشتغل..
نظر له «ياسين» ورد بتردد: ماشي يا «يوسف»، بس هتشتغل إيه؟
- أي حاجة، أنا زهقت من قعدة البيت، وبعدين انت هتفضل تصرف عليَّ وأنا عايش عالة عيك كده لحد إمتى؟
نظر له أخوه بضيق: ما تقولش كده يا «يوسف»، ما فيهاش حاجة لما تعتمد عليَّ شويّه، ما أنا ياما اعتمدت عليك.
- كنت صغير يا «ياسين»، لكن دلوقتي أنا مش صغير، أنا عندي ٢٧ سنة، يعني كبرت بما فيه الكفاية، على الأقل أحس إني بعمل حاجة.
- طب يا «يوسف» اديني فرصة أدوَّر لك على شغل وربنا يسهل.
مضى على هذا الحديث شهر، ولم يرد «ياسين» عليه بشيء، حتى تسرب اليأس إلى نفسه بأنه لن يجد له عملا أبدا، كان قد عزم على أن يبدأ البحث بنفسه في اليوم التالي، عله يجد أي عمل يشعر من خلاله بأن لديه شيئا ليفعله، لكن كان لله ترتيب آخر؛ حيث دخل أخوه إلى غرفته متلهفا في وقت متأخر من الليل وأيقظه قائلا: «يوسف»، اصحى يا «يوسف»؟

فتح «يوسف» عينيه بصعوبة: فيه إيه؟

- قوم حضر الرسومات بتاعتك والبس وتعالى على الصالون.

- ليه؟ فيه إيه؟

- مش انت كنت عايز شغل؟

- انت لقيتلي شغل؟

- أيوه وصاحب الشغل بره عايز يشوف رسوماتك، جهز نفسك واخرج بسرعة.

***

انبهر الضيف كثيرا برسومات «يوسف»، وأكد لـ«يوسف» أنه الشخص الذي يحتاجه؛ فهو صاحب شركة إعلانات ويحتاج إلى رسام بارع ليستعين به في عمله، وشكر «ياسين» لأنه لم يكن ليجد شخصا في مثل براعة «يوسف» أو إحساسه بفنه.. وطلب من «يوسف» أن يبدأ عمله من الغد إذا أراد.. فقط لم يبقَ سوى أن يوقعا العقد.

***

بدأت أحوال «يوسف» المادية تتحسن منذ أن التحق بهذه الوظيفة، وساعده ذلك على القيام بشيء يريده منذ وقت طويل، وهو أن يتعلم القراءة والكتابة.

وبالفعل بدأ «يوسف» يشتري كل وسائل تعليم القراءة والكتابة: أسطوانات كمبيوتر وكتب وغيرها.. كان يتعلم كتابة ٣ حروف كل أسبوع حتى يتقنها جيدا فيتعلم الباقي في الأسبوع التالي.. وهكذا ظل على هذا الحال قرابة الشهر وعرف أخوه بالأمر، لكن تظاهر بعدم المعرفة حتى لا يتسبب له بأي إحراج، بعد شهر بدأ «يوسف» في القراءة لكن ببطء وصعوبة شديدة، وبمجرد أن بدأ يفسر الكلام أخرج مجلات «نور» وأخذ يتهجى حروفها ويقرأها كلمة كلمة، كان أحيانا يستغرق يوما كاملا في قراءة المقال الواحد وكان أخوه يشاهده ويلاحظ كم هو سعيد بذلك، لا يكل ولا يمل، ومع مرور الوقت بدأ مستواه يتحسن بفعل إرادته وتصميمه.

***

ازدادت الأموال مع «يوسف»، لكن لم تزدَد سعادته، بحث كثيرا عن أسباب ذلك دون أن يصل لشيء محدد، فقط شعور عام بأنه لم يفعل حتى الآن شيئا يرضيه، شعر بأن احتياجه إلى «نور» جزء من حزنه، لكنه لم يرد أن يعترف بذلك في قرارة نفسه، كانت الوحدة تقتله أحيانا؛ فهو لا يرى أخاه كثيرا، وزادت وحدته منذ أن ارتبط أخوه بزميلته في العمل، تغيرت عاداته، طال حديثه في التليفون وتأخرت مواعيد عودته وأصبح دائما شارد الذهن متقلب المزاج، كل ذلك أثر على «يوسف»، أشعره بمزيد من الوحدة والانعزال؛ فهو لا يفعل شيئا في حياته سوى العمل، ومع مرور الوقت شعر «ياسين» بما يعانيه أخوه فعرض عليه أن يصاحبه هو و«داليا» إلى النادي، خاصة أن حفلا كبيرا سيقام هناك اليوم وقد يُخرج ذلك «يوسف» من حالة الاكتئاب التي يمر بها، رفض «يوسف» الفكرة في البداية؛ فهو يعرف أنهما يفضلان قضاء الوقت بمفردهما، لكن صمم أخوه على ذلك فانصاع «يوسف» لرغبته وارتدى ملابسه ونزلا معا. كانت «داليا» تنتظرهما أمام العمارة، وبمجرد رؤيتها لـ«يوسف» بدا عليها بعض الضيق، لكنها سرعان ما أخفت ذلك وابتسمت ابتسامة صفراء ثم قالت: ازيك يا «يوسف»؟

- ازيك يا «داليا»؟
- الحمد لله.
- يلا علشان ما نتأخرش.

في السيارة جلس «يوسف» في المقعد الخلفي وجلست «داليا» مع «ياسين» في المقدمة، كان الزحام شديدا وتوقفت السيارة في الإشارة، أثناء الانتظار

اقترب طفل يبيع المناديل من السيارة قائلا: نفعوني والنبي، مناديل يا

هانم..
ردت «داليا» بانفعال ونظرة القرف على وجهها: امشي يا ولد انت من هنا.
نظر «يوسف» إلى الولد متعاطفا وقد عادت له كل ذكرياته السيئة.
استأنف الولد حديثه: طب أي حاجة..
أبعدت «داليا» يد الولد بالقوة: قولتلك امشي من هنا.
كان «يوسف» يتابع الموقف بتوتر وضيق شديدين؛ فهو يعرف هذا الإحساس، وكثيرا ما وُضع في هذا الموقف وهو في السن نفسها تقريبا.
أغلقت «داليا» الزجاج، ثم استدارت ووجهت حدثيها لـ«يوسف» و«ياسين»: أنا مش عارفة إيه ده؟ مفيش مكان يلموا فيه العيال المتشردين دول؟ إيه القرف ده، البلد بقت لا تُطاق والله.
نظر «ياسين» إلى «يوسف» في مرآة السيارة فبادله أخوه النظرات، كانت نظرات يُظهر فيها الضيق الشديد والشعور بالمهانة، أدار «يوسف» وجهه تجاه الشباك وقضى باقي ليلته في صمت شديد، تتردد في أذنيه كلمات «داليا» كأنها وُجهت له شخصيا وليس إلى هذا الطفل المسكين.
طوال الوقت كان «ياسين» على علم بسبب صمت وضيق أخيه، لكنه لم يتحدث معه إلا بعد أن عادا إلى المنزل؛ حيث تبع «ياسين» «يوسف» إلى غرفته وحاول أن يبدأ الحديث معه بطريقة لا تجرحه، فقال: أنا آسف يا «يوسف» بس...
قاطعه «يوسف» قائلا: مفيش حاجة يا «ياسين» (كان يتحدث وهو يبدل ملابسه في محاولة أن يخفي غضبه المتزايد).
استأنف «ياسين» حديثه: أنا عارف إن الكلام ضايقك، بس «داليا» أصلها عمرها ما شافت المناظر دي و... (صمت «ياسين»؛ فقد شعر أنه زاد الموقف صعوبة بهذا الكلام).

نظر «يوسف» إلى «ياسين» ورد بعصبية: خلاص يا «ياسين»، كفاية، قولتلك ما حصلش حاجة، لو سمحت سيبني لوحدي شويّه، أنا تعبان وعايز أرتاح.

نظر له أخوه وأومأ برأسه ثم خرج وأغلق الباب وراءه.

لم تغفل عينا «يوسف» هذه الليلة، مر أمامه شريط حياته كاملا، لم يفارقه منظر هذا الطفل، راودته نفس الأحاسيس التي طالما راودته وهو صغير كلما تعرض لموقف بهذا الشكل، وأخذت تراوده الخيالات عن ظروف هذا الطفل وما دفعه إلى العمل، قد يكون تعرض لمثل ظروفه أو أكثر، ولم يكن هناك أحد ليساعده تماما كما كانت أحواله، لكن على الرغم من الأثر السيئ الذي تركته هذه الحادثة فإنها أوحت لـ«يوسف» بما يجب عليه فعله.

وبالفعل بدأ عرض فكرته على أخيه بحماس، قائلا: «ياسين»، أنا فكرت في حاجة ونفسي أعملها.. شايف الإعلان ده؟

نظر «ياسين» إلى «الجورنال» ورد قائلا: أرض في مصر القديمة؟ وانت هتعمل إيه بالأرض دي؟ وهتشتريها ازاي؟

- فلوس الأرض معايا، لكن مش معايا فلوس أبنيها.. وفكرت إني آخد قرض من البنك، بس انت عارف ممكن يعملوا تحريات ويعرفوا ظروفي وما يرضوش يدوني القرض، فأنا قولت إنك ممكن تضمنّي وتتوسطلي لو حد من أصحابك بيشتغل في بنك و...

- أنا مش فاهم حاجة يا «يوسف»؟ انت عاوز الأرض دي ليه أصلا؟

- أنا هابني عليها ملجأ كبير، وهيبقى فيه مبنى للولاد ومبنى للبنات، هحاول أجمع فيه أكبر عدد من العيال اللي في الشوارع دول لحد سن ١٦ سنة وهعلمهم يقروا ويكتبوا وهعلمهم كمان أي صنعة، علشان لما يخرجوا يقدروا يشتغلوا، إيه رأيك؟

نظر «ياسين» إلى أخيه بضيق ثم قال: وإيه الفايدة اللي هتعود عليك من المشروع ده؟

نظر «يوسف» إلى أخيه باستغراب ثم قال: مش فاهم.

استأنف «ياسين» حديثه بضيق: انت معاك فلوس أد إيه يا «يوسف»؟

- ٥٠ ألف.

- وعايز تضيعهم على حاجة زي كده؟

- هو أنا لما أساعد الناس أبقى بضيع فلوسي؟

- عايز تساعدهم ساعدهم بأي طريقة تانية، إديهم فلوس، هاتلهم لبس، أكل، ده كفاية أوي.

- هما مش محتاجين لبس أو أكل أو فلوس يا «ياسين»، هما محتاجين يحسوا بالأمان، بإن فيه حد بيحبهم ويحترمهم مش بيعطف عليهم ويديهم صدقة، نفس اللي أنا وانت كنا بندور عليه زمان.

- وانت بقى هتبقى وزارة الشئون الاجتماعية اللي هتساعدهم وتاخد بإيدهم؟

- انت بتتريق؟ عندك حق، انت عمرك ما حسيت باللي هما بيحسوه.

- بيحسوا؟ بيحسوا بإيه يا «يوسف»؟ دول شويّة عيال شوارعية، واخدين على نومة الأرصفة، حتى لو لمتهم ولبستهم حرير، هيحنوا للشارع تاني وهيرجعوله.

وقعت تلك الكلمات على «يوسف» كالصواعق، فرد على أخيه بصوت منكسر: زي ما أنا رجعتله؟

بدا على «ياسين» الندم على ما قاله فاقترب من أخيه وقال: «يوسف»، أنا مش قصدي، أنا...

ابتعد «يوسف» عنه قائلا:

- خلاص يا «ياسين» كفاية كده.

- أنا..

(علا صوته):

- «ياسين»، ما تقولش حاجة دلوقتي.. لو سمحت.

الفصل الخامس عشر

زفاف «ياسين»

كان الحديث السابق هو آخر حديث يجريه «يوسف» مع أخيه، بعدها ترك «يوسف» المنزل وانتقل للعيش في شقة صغيرة قام بتأجيرها.
بعد أيام، ذهب «يوسف» لشراء قطعة الأرض التي تحدث عنها مع أخيه، لكنه فوجئ بأنها قد بيعت وأن أعمال البناء قد بدأت فيها بالفعل، ما أصابه ببعض اليأس وجعله يؤجل التفكير في موضوع الملجأ هذا إلى وقت آخر..
في هذه الأثناء كان «ياسين» يجهز ليوم زفافه الذي لم يبقَ عليه سوى شهر، وحاول الاتصال بأخيه أكثر من مرة، لكن دون فائدة؛ فهو يعرف جيدا أن كلامه قد جرح «يوسف» بشدة، خاصة أنه صادر منه هو.. من أخيه الذي يعرف كم عانى حياة الشارع، لكنه فعلا في قرارة نفسه لم يكن يقصد أن يجرحه، هو فقط يريده أن يحافظ على أمواله وألا ينساق وراء عواطفه.
أما «يوسف» فكان يستمع إلى الرسائل التي تصله من أخيه وكثيرا ما شعر بالرغبة في الرد عليه وإبلاغه أنه يسامحه فهو يعرف أن رد فعله كان قاسيا وأنه ترك «ياسين» مع اقتراب موعد زفافه ومع زيادة احتياجه له، لكن كرامته لم تكن تسمح له بالبقاء.
ظل هذا الصراع دائرا داخل نفس كل منهما إلى أن اتخذ «يوسف» قراره وذهب إلى منزل أخيه قبل الزفاف بيومين ليهنئه ويكون بجانبه في هذا الوقت؛ فهو لا يستطيع أن يضيع مثل هذه اللحظة دون أن يكون موجودا بجانب أخيه، أما «ياسين» فلم يكد يرى أخاه حتى ارتمى في حضنه واعتذر إليه وشكره على مجيئه إليه في هذه اللحظات؛ فهو يحتاجه فعلا إلى أقصى حد.
كان هذان اليومان هما أسرع يومين مرًّا على «يوسف»، شعر أنه فجأة قد وجد نفسه يقف مع أخيه في الغرفة يساعده في ارتداء ملابسه، أثناء

ذلك تحدث معه «ياسين» قائلا: المفروض كنت انت اللي تتجوز الأول، بس شكلك عايز تجرب فيَّ.

ابتسم «يوسف» وقال: انت عارف أنا ما بفكرش في الموضوع ده دلوقتي، المهم إني اطمنت عليك انت.

في طريقهما إلى الخارج استوقفه «ياسين» قائلا: «يوسف» صحيح أنا سايبلك شويّة حاجات في الدولاب هنا، لما الفرح يخلص تعالى خدهم قبل ما تروح على شقتك.

- هدية يعني؟

- يعني.. حاجة زي كده.

***

كانت ليلة الزفاف أروع ليلة قضاها «يوسف»، لم يشعر بالفرح قط كما شعر هذا اليوم، شعر أن كل ما حدث له ولأخيه في السنوات الماضية قد مُحيَ، انتهى، حُذف للأبد من ذكرياته، وتأكد أن فراقه لـ«ياسين» في الماضي كان شيئا ضروريا، فلولاه ما كانا ليشهدا هذه اللحظة أبدا.

كان كلما نظر إلى «ياسين» ووجده سعيدا تذكر والده وكيف أوصاه على أخيه، ونسي كل لحظات الفراق التي مر بها، أو تعمد أن يتناساها، فهي لا وجود لها في حياته بعد الآن.

بعد الزفاف سافر «ياسين» وعروسه إلى شرم الشيخ لقضاء شهر العسل، وتوجه «يوسف» إلى شقة أخيه ليأخذ الأشياء التي تركها له والتي لا يعرف حتى الآن ما هي!

وصل إلى الشقة وفتح الدولاب ليجد جوابا من أخيه مكتوبا عليه: «إلى أغلى أخ في الدنيا».

فتح «ياسين» الجواب ليجد عقد تمليك باسمه لفيلا في مصر الجديدة، قريبة من منزل أخيه، ومع العقد وجد جوابا كُتب فيه: «معلش، لقيت أرض مصر القديمة اتباعت، اشتريت الفيلا دي علشان تعمل مشروعك زي ما حلمت بيه بالظبط، الفيلا واسعة، ٣ أدوار، يعني ممكن تقسمها زي ما انت عايز، أهم حاجة إنك تسامحني لو كنت زعلتك في يوم من الأيام أو اتخليت عنك، وعايزك تعرف إنك هتفضل مثلي الأعلى طول عمري».

لم يقرأ «يوسف» هذه الكلمات مرة واحدة، إنما استمر في النظر إليها طوال الليل؛ فقد كان وقعها على أذنه وقع الشعر، إنها مجرد كلمات لكن بالنسبة له هي الدليل على أن هدفه في الحياة قد تحقق؛ فقد تحول من طفل ليس له مأوى سوى الشارع، مجرم منبوذ من الجميع، إلى رسام ناجح، قدوة لأخيه الذي لم يكن يحلم بأكثر من أن يتعاطف

معه ويتذكره.. إنه الآن لم يتبقَّ له في الحياة سوى أمنية واحدة إلا أنها من الصعب أن تتحقق.

الفصل السادس عشر

الماضي يعود

كان هذا اليوم من الأيام القلائل التي لا يذهب فيها «يوسف» إلى عمله في الملجأ منذ أن افتتحه منذ ثلاث سنوات؛ فهو يوم واحد كل عام، يوم عيد ميلاد «يوسف» الصغير، ابن أخيه «ياسين»، فقد سماه أخوه على اسمه علَّه يأخذ موهبته وشخصيته ونجاحه، ووعد «يوسف» أن الابن القادم سيسميه «صالح» على اسم والدهما، هذا إذا لم يتزوج «يوسف» وينجب قبل ذلك بالطبع؛ فـ«ياسين» كان مهتما جدا بهذا الموضوع وكان يعرِّف «يوسف» يوميا على عدد لا يحصى من الفتيات، هذا إلى جانب أنه اختار له كل موظفي الملجأ من الفتيات، وليس ذلك فحسب؛ فقد كان يساعد بعضهن على التقرب من أخيه، وآخرهن تلك الفتاة صديقة «داليا» زوجته، التي ستذهب معه بعد الحفل ليرسمها، بعد أن أكد لها «ياسين» أن «يوسف» يرغب في ذلك لكنه مُحرج ولا يستطيع أن يطلب منها هذا بنفسه.

ساعد «يوسف» أخاه على تعليق زينة عيد الميلاد، وأثناء ذلك رن جرس الباب ففتحت «داليا» الباب ودخلت فتاة ذات جمال باهر، في هذه اللحظة استدار «ياسين» نحو «يوسف» وقال: أهيه، هي دي اللي أنا بقولك عليها.

- دي اللي هرسمها؟
- آه، يا بختك.. ما تعلمني الرسم.
- أنا شايفها عادية يعني مش زي ما قعدت توصف.
- دي عادية؟ انت أعمى يا ابني؟ ده أنا لو كنت قابلتها قبل «داليا» كان زماني قاعد برسم فيها ليل نهار.
- احترم نفسك شويّه، وبعدين يا أخي كفاية بنات بقى، قولتلك أنا مش عايز أتجوز.
- وهو حد قالك اتجوزها يا بني آدم؟ أنا بقولك ارسمها، ارسمها..

وبعدين لما تيجي تقف معاها ابقى اقلع الدبلة اللي في إيدك دي.

- طب بص قدامك بقى مراتك جاية.

طوال الحفل كانت هذه الفتاة تنظر إلى «يوسف» وتبتسم، وكان «يوسف» يبادلها النظرات، لكن مضطرا؛ فـ«ياسين» يقف بجانبه طوال الوقت ويملي عليه ما يفعل، وبعد لحظات أخذه «ياسين» من يده واقترب من «داليا» وصديقتها..

- ازيك يا «هنا».. إيه، الحفلة عجبتك؟

- جميلة أوي، كل سنة و«يوسف» طيب.

- وانتي طيبة.. بس قصدك «يوسف» الصغير ولا «يوسف» الكبير؟

نظر له أخوه وبدا عليه الإحراج الشديد.

ابتسمت «هنا» ونظرت إلى «يوسف» قائلة: الاتنين طبعا.

نظر لها «يوسف» وابتسم بإحراج ثم أدار وجهه سريعا.

- على فكرة يا «يوسف»، «هنا» شافت رسومات كتير ليك وعجبتها أوي.

نظر لها «يوسف» بابتسامة مصطنعة: بجد؟

- انت بترسم حاجات صغيرة أوي ناس كتير مش بتلاحظها.

تحدث «ياسين» مبتسما: آه، هو «يوسف» عبقري.

ضحك «يوسف» بتكلف ونظر إلى أخيه ثم قال: عن إذنكوا. ثم مال على أخيه قائلا: تعالى عايزك..

- عن إذنكوا..

دخل الاثنان إلى الشرفة فقال «يوسف» بتوتر: أنا عايز أفهم إيه اللي انت بتعمله ده؟

- إيه؟ بلمعك علشان البت تعرف إنك جامد.

- بتلمعني إيه؟ أنا مليش في الجو ده، ومش هارسم حد.

في هذه اللحظة اقتربت «داليا» منهما وقالت: «يوسف»، «هنا» ماشية،

يلا علشان تروحوا سوا.

توجه «يوسف» نحو أخيه: نروَّح سوا فين؟

- إيه؟

- مفيش يا «داليا»، روحي واحنا جايين وراكي.

خرجت «داليا» ووجَّه «يوسف» حديثه إلى «ياسين»: انت زي ما ورطتني في الموضوع ده تخرجني منه، أنا بقولك أهه.

- مالك يا ابني؟ مفزوع كده ليه؟

- مش مفزوع ولا حاجة، بس أنا مليش في الحركات بتاعتك دي، وبعدين هوصلها فين؟

- على البيت طبعا، يلا بس (كان يجذب «يوسف» من ذراعه).

- بيت مين؟

جذبه «ياسين» بقوه من ذراعه ثم قال: بيتك..

قريبا من الأسانسير وقفت «داليا» و«هنا»، أما «يوسف» فوقف أمام الباب ولم يرد أن يخرج فحثه «ياسين» على الخروج قائلا: يلا يا ابني، مستنيينك بقالهم ساعة..

نظر «يوسف» إلى الخارج فوجد «هنا» تبتسم له فأدخل رأسه مرة أخرى ثم قال لـ«ياسين»: هي اسمها إيه؟

أخذ «ياسين» نفسا عميقا وأخرجه برومانسية: «هنااااااااا».

نظر له «يوسف» بضيق ثم خرج واقترب منهما ووقف «ياسين» بجانبه، سادت لحظة صمت إلى أن جاء الأسانسير، كان الجميع يتبادل خلالها النظرات، دخلت «هنا» إلى الأسانسير وهمَّ «يوسف» بالدخول، لكن جذبه «ياسين» قليلا وهمس في أذنه قائلا: ما ترسمش الصورة كلها النهارده.

نظر «يوسف» له بلوم وأغلق باب الأسانسير و«ياسين» يقول بابتسامة:

باي باي..

في الطريق سادت لحظات صمت طويلة؛ فـ«يوسف» غير معتاد على الحديث مع الفتيات إطلاقا، حتى إنه لم يخرج عن صمته هذا إلا عندما بدأت «هنا» بالحديث معه قائلة: إحنا هنروح على فين دلوقتي؟

- هنروح على الجمعية بتاعتي، فيه شويّة حاجات عايز أخلصها قبل ما نروح البيت.

- الجمعية دي خاصة بالرسم؟

- لا.. ملجأ للأيتام.

- وانت بتشتغل إيه فيها؟

- أنا صاحب الجمعية والمدير بتاعها.

- بس حاجة زي دي ما تجيبلكش فلوس، الأحسن تستغلها في حاجة فيها فايدة.

نظر لها «يوسف» باستغراب ثم أدار وجهه قائلا: زي إيه؟

- ممكن مثلا تحولها مرسم، تعمل فيه شغلك وتأجره لرسامين تانيين، أو تعملها معرض، أي حاجة من دي هتعود عليك بفايدة أكبر.

نظر لها «يوسف» ورد ساخرا: فعلا عندك حق.

***

توقف «يوسف» بسيارته أمام الجمعية ونزل الاثنان متوجهين إلى مكتبه، دخل الغرفة فوجد مكتب «شيماء» السكرتيرة خاليا، على الرغم من أن موعد انصرافها لم يأتِ بعد، نظرت له «هنا» قائلة: هما الموظفين كلهم مشيوا؟

- مش عارف.. مش مهم، أنا هاخد شويّة حاجات وهمشي، فتح باب مكتبه فوجد النور مضاءً، استغرب قليلا لكنه لم يُطِل التفكير في الأمر وقال لـ«هنا»: اتفضلي ارتاحي، ثواني وهنمشي..

ذهب «يوسف» وأخذ يبحث في أرفف المكتبة عن لا شيء؛ فكل ما يأمله الآن أن يضيع الوقت لكي يعتذر لها ويتهرب من موضوع الرسم هذا.. لحظات والتفت «يوسف» متنبها بعد أن شعر بـ«هنا» تقف قريبا منه. كان «يوسف» معطيا لها ظهره فاستدار متوترا ونظر إليها.

- تحب ادور معاك؟

رد «يوسف» بتوتر: لا، ما تتعبيش نفسك.. لم يستطع الرد بأكثر من ذلك؛ فكل ما يفكر فيه الآن أن يبتعد عنها قليلا، لكن منعه من ذلك يده التي لا تزال عالقة بين الكتب في الرف العلوي.

مدت «هنا» يدها إلى جانب يد «يوسف» لتعيد الكتب إلى مكانها، ما زاد اقترابها منه، في هذه الأثناء فوجئ «يوسف» بأن باب الغرفة المتصلة بمكتبه، التي يستخدمها كمرسم، قد فُتح وظهرت فتاة ذات شعر طويل أسود، دقق النظر للحظات ثم تبين ملامحها بتوتر ودهشة، إنها «نور».. في البداية أحس أنه يحلم، أطال النظر إليها فتأكد أنها «نور»، «نور» التي لم يحب سواها في حياته، هي بكل ملامحها، بنفس رقتها وجمالها، فقط ازدادت نضجا وهدوءا.. التفتت «هنا» على صوت فتح الباب، وسحبت يدها بسرعة فسقطت كل الكتب على رأس «يوسف» وأوقعته على الأرض..

- آآآآه..

صاحت «هنا» بخوف: «يوسف».

حاولت مساعدته على النهوض: انت كويس؟

لم يرد «يوسف» عليها.

اقتربت «نور» منهما قائلة: أنا آسفة، جيت في وقت مش مناسب..

- لا لا لا لا..

نظرت «نور» إلى «يوسف» بلوم.

تحدث «يوسف» بتوتر: دي «هدى»..

نظرت له «هنا» بضيق لأنه أخطأ في اسمها؛ فنظر لها «يوسف» ثم استدرك الموقف قائلا: «هند».. لا.. «هنا»، دي «هنا».

كانت «نور» تتابعه باستغراب وهو لا يستطيع أن يجمع جملة كاملة.

استأنف «يوسف» حديثه و«نور» و«هنا» تنظران له باستغراب شديد: «هنا» صاحبة «داليا» صاحبة «ياسين».. لا.. مرات «ياسين»، «داليا» مرات «ياسين».

- أهلا وسهلا.

ردت «هنا» وعلى وجهها ابتسامة صفراء: هاي.

نظرت «نور» لـ«يوسف»: طيب أسيبكوا تكملوا اللي كنتوا بتعملوه.

قالت «نور» هذه الكلمات وتوجهت نحو الباب.

- لأ، استني.

خرجت «نور» من الغرفة وجرى «يوسف» وراءها، لكن قبل أن يخرج من الغرفة استدار وقال لـ«هنا»: انتي وشك حلو أوي.

في طريقه للخروج رأى «يوسف» «شيماء»، السكرتيرة، تدخل إلى الغرفة فقالت له: أستاذ «يوسف»، كان فيه واحدة سألت عليك ودخلت تستناك في...

لم تستكمل «شيماء» حديثها؛ فقد وجدت «يوسف» يجري وهو غير منتبه لها على الإطلاق.
خرج «يوسف» من باب الجمعية ووجد «نور» تسير مسرعة، فنادى عليها بصوت منخفض: «نور».. «نور» استني. لم تقف «نور» ولم تلتفت إليه، فصاح بصوت عالٍ لفت إليه نظر بعض المارة: «نووووووووور»، بقولك استني.
توقفت «نور» ونظرت إليه بغضب قائلة: عايز إيه؟
نظر لها «يوسف» ثم قال: هي دي مقابلتك ليَّ بعد ١٠ سنين؟
- ما كنتش أعرف إني هاجي ألاقيك مع واحدة تانية.
- انتي فاهمة غلط..
- على العموم أنا كنت متوقعة ده، بس كويس إني أنا اللي شوفتك مش مراتك (كانت «نور» تتحدث وهي تنظر إلى الدبلة الموجودة في يده، وبمجرد انتهاء كلماتها واصلت السير مرة أخرى).
نظر «يوسف» إلى يده ثم قال: مراتي؟ سار «يوسف» وراءها ثم قال: لأ.. انتي فهمتي إيه؟ أنا مش متجوز.
استأنفت «نور» حديثها وهي تواصل السير و«يوسف» يسير وراءها: خلاص يا «يوسف»، كفاية كدب.
- أنا ما بكدبش عليكي.. وبعدين انتي بالذات المفروض ما تتكلميش عن الكدب، انتي نسيتيني في يومين وروحتي اتجوزتي «حازم» بتاعك.
توقفت «نور» ونظرت إليه قائلة: أنا عملت اللي وعدتك بيه، انت اللي طلبت مني كده.
رد «يوسف» بصوت مرتعش: أيوه.. بس ما تخيلتش إنه هيبقى بسرعة أوي كده.. يومين؟ يومين وتتجوزي واحد تاني؟
سادت لحظة صمت قطعها صوت «يوسف» قائلا: أنا آسف، انسي كل

اللي قولته وتعالي نتكلم في أي حاجة تانية، أنا بقالي ١٠ سنين بحلم باللحظة دي.

نظرت له «نور» وسادت لحظة صمت ثم قالت: طيب هنقعد فين؟

رد «يوسف» مبتسما: بلاش نقعد تعالي نتمشى..

سار الاثنان معا دون أن يعرفا وجهتهما، أخذ كل منهما يحكي للآخر ما حدث له خلال السنوات الماضية.

- أنا ما اتجوزتش «حازم».

نظر لها «يوسف» وقد بدا على وجهه المفاجأة..

- هربت يوم الفرح (ارتسمت على وجهها ابتسامة وهي تتذكر هذا اليوم).. استنيتك تيجي تخطفني، كان قلبي بيقول لي إنك هتيجي، هتنقذني زي المرة اللي فاتت، بس بعد شويّه فوقت، واقتنعت إن مش هينفع حد ييجي ينقذني المرة دي، لازم أنا أنقذ نفسي، هربت بس بعد ما كتبتلهم جواب قولتلهم فيه إني هربانة بإرادتي ومش مخطوفة، علشان ما يقلقوش، بعدها قعدت فترة في سيناء.. قريب من المكان اللي كنا فيه مع بعض، كنت منهارة وفكرت أموّت نفسي، ما ارتحتش غير لما عرفت إن الحكم عليك اتخفض من إعدام لعشر سنين.. ساعتها المحامي طمني إنك ممكن تقضي وقت أقل من ده لو ما عملتش مشاكل في السجن..

- وهو المحامي يعرفك منين؟

نظرت له «نور» وقد أدركت أنها قد أخبرته بشيء لم يكن من المفروض أن يعرفه.. سكتت برهة ثم قالت: بعد ما وصلت الجواب لـ«ياسين» أخوك، جالي على الفيلا وقال لي إنه عايز يجيبلك محامي ويطعن على الحكم، بس ما كانش معاه فلوس، وباباه ومامته رفضوا يساعدوه، ساعتها وافقت من غير ما افكر، بس قولتله ما يقولكش إني ليَّ صلة بالموضوع علشان أنا وعدتك.

- «ياسين» عمره ما جابلي سيرة الموضوع ده.. حتى بعد ما خرجت.
- أنا قبل ما أسافر وصيته ما يقولكش..
- سافرتي فين؟
- سافرت أمريكا، افتكرت كلامك لما قولتلي عيشي حياتك زي ما انتي عايزها، في الأول ما كنتش عارفة أنا عايزة إيه، بس لقيت إن أكتر حاجة بتريحني هي الكتابة، يمكن علشان كانت بتفكرني بيك؟ مش عارفة؟ سافرت أمريكا وبدأت أدرس هناك كتابة القصص.. قعدت ٣ سنين، بعدها سافرت إنجلترا، وبدأت أكتب في مجلة هناك قصص صغيرة.. ما كنتش بحب أقعد في مكان واحد كتير، الاستقرار ده كان بيخليني أفكر فيك، وكان بيتعبني أكتر.. سافرت بلاد كتير أوي: فرنسا، إيطاليا، هولندا، تركيا، الهند، اليابان..

نظر لها «يوسف» مبتسما وقال: طب وباباكي ومامتك عملوا إيه؟

نظرت له «نور» بابتسامة بسيطة وقالت: بابا دفع فلوس لكل الجرايد علشان ما تنشرش خبر هروبي، لدرجة إن فيه جرايد كتبت إني اتجوزت «حازم» وسافرت معاه لندن.

في الفترة الأخيرة استقريت في تركيا، وهناك واحدة صاحبتي من مصر قالت لي أكتب قصة بس بالعربي وأبعتهالها علشان تنشرها في مجلتها، ساعتها طبعا ما لقيتش أحلى من حكايتي معاك.. كتبتها كلها، من ساعة ما خطفتني لحد ما قبضوا عليك..

نظر لها «يوسف» قائلا: كتبتيها ٦ أجزاء، ١٠٠ صفحة، ٣٠٠٠ سطر.

ردت «نور» باستغراب: مين قراهالك؟ «ياسين»؟

- انتي فاكرة إنك انتي بس اللي اتعلمتي في العشر سنين اللي فاتوا ولا إيه؟ أنا قريتها كلها كلمة كلمة.
- يظهر إن حاجات كتير اتغيرت فيك..

- إلا إني بحبك، هي دي الحاجة الوحيدة اللي ما اتغيرتش وعمرها ما هتتغير.

ابتسمت «نور» بخجل، لكن سرعان ما زالت ابتسامتها وقالت بعصبية: أمال اللي كنت معاها في المكتب دي مين؟ وبعدين أنا قعدت في مكتبك نص ساعة لقيت كل الموظفين بنات، إيه؟ الرجالة خلصوا من البلد؟

- والله ما أنا اللي بختارهم، منه لله «ياسين» هو اللي دايما فاضحني كده.

- وبتاعة المكتب؟

- واحدة من اللي «ياسين» عايزني أتجوزهم.

- وانت؟

- أنا إيه؟

- مش عايز تتجوز؟

- طبعا، هاتجوزك انتي..

ابتسم الاثنان وتوقفا عن الحديث برهة والتفتا حولها ليجدا نفسيهما على الكورنيش..

- إيه ده؟

نظرت «نور» حولها وضحك الاثنان بصوت عالٍ.

- إحنا مشينا كتير أوي.

- أنا ما حسيتش بالوقت.

- ولا انا، علشان معاكي.

وقف الاثنان برهة ينظران نحو النيل حتى التفتا على صوت بياع سميط.. توجه «يوسف» نحو البائع واشترى منه كل ما معه..

- هتعمل إيه بكل ده؟

- هناكلوا واحنا راجعين.

- وهنرجع ازاي؟ أنا نسيت عربيتي قدام الجمعية بتاعتك وفيها الفلوس.
- نتمشى..
ابتسمت «نور» ثم قالت له بحماس: يلا.
سار الاثنان إلى الجمعية، وفى الطريق أخذا يتضاحكان ويأكلان حتى وصلا إلى الجمعية فاصطحبها «يوسف» إلى مكانه المفضل حيث يقضي معظم وقته.
كان المكان عبارة عن حديقة واسعة وبها الكثير من الألعاب الخاصة بالأطفال: أرجوحات، متاهات، وغيرها.
- إيه ده؟
- الأوضة دي أنا فهِّمت الناس كلها إني عملتها علشان الولاد اللي عايشين هنا، بس الحقيقة إني عملتها ليَّ أنا، كل يوم بعد ما العيال بيناموا، والموظفين كلهم يمشوا باجي هنا وأقعد ألعب لحد ما أحس إني دُخت وعايز أنام.
كانت «نور» تضحك على كلام «يوسف» بشدة..
أمسك «يوسف» بيدها وجلس الاثنان على أرجوحتين بجانب بعضهما البعض، أخذا يتأرجحان صامتين إلى أن تحدث «يوسف» بصوت هادئ: «نور»، انتي عرفتي طريقي ازاي؟
- أول ما رجعت مصر جيت على شقة «ياسين» أخوك وسألت عليه فقالولي إنه مشي، سألت كتير لحد ما عرفت عنوانه الجديد، وصلت العمارة وفكرت أزوره وأسأل عليك بس خُفت، وفي مرة وأنا واقفة قدام العمارة شفتك طالع، استنيت لما نزلت ومشيت وراك بالعربية لحد هنا، ومن ساعتها وأنا بتابعك بقالي كتير أوي، كنت ببقى قريبة منك وكل ما آجي أكلمك حاجة تمنعني لحد النهارده، قررت إني لازم أشوفك وأكلمك مهما كنت خايفة أو قلقانة، حسيت إني...

كان «يوسف» يتابعها وهي تتحدث وقاطعها فجأة قائلا: أنا بحبك..
نظرت له «نور» وصمتت لحظة ثم قالت: وأنا ما عرفتش الحب غير معاك.
اقترب الاثنان من بعضهما وأوشك «يوسف» على تقبيلها، لكنهما أحسا بوجود شخص قرب الباب، نظر الاثنان ليجدا طفلا صغيرا يقف على باب الغرفة.. كان في حوالي الرابعة من العمر.
نهض «يوسف» من مكانه وتوجه نحو الطفل قائلا: «عمر».. إيه اللي صحاك؟
«عمر»: جيت أتمرجح.
- بالليل كده؟ تعالى أنيمك في سريرك والصبح نتمرجح..
«عمر»: لأ أنا عايز ألعب معاكوا..
- ما ينفعش، أصل...
قاطعته «نور» قائلة: هاته يا «يوسف»، خليه يلعب شويّه..
لعب الاثنان مع الطفل فترة حتى غلبه النوم، فحمله «يوسف» وتوجه هو و«نور» إلى غرفة الولد ووضعاه على سريره، لكنه فتح عينيه قائلا: بابا «يوسف»، انت هتمشي؟
- ما تخافش يا «عمر»، أول ما تفتح عينيك الصبح هتلاقيني..
توجه الاثنان بعد ذلك إلى المرسم الخاص بـ«يوسف»، جلست «نور» على الأريكة ونام «يوسف» مستندا على رجلها: أنا عايز أنام.
- نام.. أنا جنبك.
- خايف لما أصحى ما الاقيكيش.. خايف أكون بحلم.
- ما تخافش، أنا هفضل جنبك.
- يعني هفتح عيني...
- تلاقيني قدامك، طول العمر..

أغمض «يوسف» عينيه وقد اطمأن أنه عندما يفتح عينيه هذه المرة لن يجد نفسه قد فارق شخصا آخر؛ فقد انتهت لحظات الفراق من حياته إلى الأبد ولن تضطره الظروف إلى الابتعاد عمَّن يحبهم بعد الآن.

***

تمت

المحتويات

الفصل الأول (زفاف غير عادي)	٧
الفصل الثاني (الخاطف المجهول)	١٧
الفصل الثالث (في منزل «يوسف»)	٢٩
الفصل الرابع (جانب غامض)	٣٣
الفصل الخامس (خارج الغرفة المغلقة)	٤٣
الفصل السادس (ألم الفراق)	٥٣
الفصل السابع (في القاهرة)	٦١
الفصل الثامن (الطريق إلى المجهول)	٧٣
الفصل التاسع (الهروب)	٨٨
الفصل العاشر (الفراق الأخير)	١٠٣
الفصل الحادي عشر (على الجزيرة)	١١٩
الفصل الثاني عشر (٧ أيام)	١٤٥
الفصل الثالث عشر (لقاء طال انتظاره)	١٥٧
الفصل الرابع عشر (حياة جديدة)	١٧٣
الفصل الخامس عشر (زفاف «ياسين»)	١٨٧
الفصل السادس عشر (الماضي يعود)	١٩٣